أدب الحرب

الحرب والسلام

ليوتولستوى

الجزء الثالث

ترجمة: ادوار الخراط

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ليو تولستوى

الحرب والسلام

ترجمة: ادوار الخراط

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٤

رئيس مجلس الإدارة :

ا . د سمير سرحان

رئيس التحرير :

جمال الغيطانى

مدير التحرير

سعيد عبد الفتاح

الغلاف

والتصميم الجرافيكى

للفنان : محمود الهندى

الكتاب الثالث

الفصل الأول

لم يكن الأمير ڤاسيلي رجلا يتدبرّ خططه ومشروعاته تدبّراً . ولا هو بالذي يفكر فى أن يضير أحداً ، لمصلحته الخاصة . بل كان رجلا من رجال المجتمع اطّرد به سبيل النجاح ، وأصبح النجاح له عادةً يألفها . وكانت الخطط والحيل تتشكل فى ذهنه على الدوام ، نابعة عما يلقى من أحوال وأشخاص ، دون أن يحسب لها حساباً بنفسه ، وإن كانت شغل حياته الشاغل . ولم يكن فى ذهنه خطة أو خطتان منها ، بل عشرات ، بعضها مازال يتكون ، فى بدايته ، وبعضها يدنو من التحقق والاستكمال ، والبعض الآخر فى طور التحلّل والانتهاء . لم يكن ليقول لنفسه ، مثلا : « إن لهذا الرجل نفوذاً ، فيجب أن أظفر بثقته وصداقته ، وأن أحصل ، عن طريقه ، على عونٍ مالى خاص » . ولا قال لنفسه : « إن پيير رجل ثرى ، فيجب أن أغريه بزواج بنتى ، وأن يقرضنى الأربعين ألف روبل التى أحتاجها » على أنه إذا وقع على رجل له مكانته ، أوحت إليه غريزته أن هذا الرجل قد تكون له جدواه ، وينتهز الأمير ڤاسيلي ، دون أى تدبر ، أولَ سانحةٍ ليفوز بثقته ، ويتملقه ، ويصبح حميم القُربى إليه ويطلب إليه فى النهاية مايحتاج .

وأبقى پيير فى متناول يديه ، فى موسكو ، وحصل له على وظيفة «سدّاً فى البلاط » . وهى وظيفة ، فى ذلك العهد ، تُضفى على صاحبها رتبة

مستشار الدولة [1] . وأصر على أن يصحبه الفتى إلى بطرسبرج ، وينزل فى بيته . فعل الأمير ڤاسيلى ذلك حتى يدفع پيير إلى الزواج بينته ، دون أن يلقى إلى ذلك بالاً فيما يبدو ، وإن كان يفعله بيقين لا يخامره تردّد أنه يفعل الشيء الصواب. فلو كان قد تدبّر خططه ، عن سبق ، لما استطاع أن يكون طبيعياً إلى هذا القدر ، ولا أن يُبدى مثل هذه الألفة غير المصنوعة مع الناس جميعاً ، سواء كانوا يرقون أو ينحدرون عنه مكانةً فى المجتمع . كان ثمّ ما يجذبه دائماً إلى من هو أغنى منه وأقوى ، وكانت له براعة نادرة فى اقتناص أنسب اللحظات للافادة من الناس .

وبعد أن أصبح پيير ، على غير انتظار ، الكونت بزوخوف ، ورجلاً ثرياً ، أحسّ نفسه بعد وحدته وخلوصه من كل همّ ، مشغولاً مهموماً ، حتى لم يعد يستطيع أن يعود إلى نفسه إلا فى السرير . كان عليه أن يوقع أوراقاً ، وأن يقدّم نفسه إلى مكاتب حكومية لم يكن الغرض منها واضحاً عنده ، وأن يسأل رئيسى وكلائه الحساب ، وأن يزور ضيعته بالقرب من موسكو ، وأن يستقبل كثيراً من الناس لم يكونوا من قبل يريدون أن يعرفوا شيئاً عن وجوده ، لكنهم الآن خليقون بأن يحنقوا ويتألموا ، لو أنه شاء ألا يستقبلهم . وكان هؤلاء الناس على شتى صنوفهم — رجال أعمال ، وذوى قربى ، ومعارف على السواء — على استعداد أن يتعاملوا مع الوارث الشاب ، بأكثر الطرق ودًّا وملَقاً ، كانوا جميعاً ، فيما يظهر ، على يقين جازم من نبل سجايا پيير . كان دائماً يسمع مثل هذه العبارات :

— إن عطفك الملحوظ ... أو ...

— إن قلبك الطيب ..

---

(١) وظيفة أقل مرتبة مما يوحى به اللقب . فهى الخامسة من إحدى عشرة درجة كان يوزع عليها موظفو الدولة جميعاً ، عسكريين ومدنيين .

— إنك لجد شريف ، يا كونت . أو ...

— لو أنه كان فى مثل ذكائك ...

حتى بدأ يوقن ، فى إخلاص ، بطيبته الخارقة ، وذكائه الباهر ، ذلك على الأخص ، وقد كان يبدو له دائماً فى أعماق قلبه ، أنه كان فى الحق ، طيباً وذكياً جداً . بل إن الناس الذين كانوا من قبل على ضغن منه ، وعلى غير ود واضح ، استحالوا الآن ودودين رقيقى الحاشية . كانت كبرى الأميرات ، الغضوبة ، ذات الخصر الطويل ، والشعر المصفف اللصوق على رأسها كشعر الدمية ، قد جاءت إلى غرفة پيير بعد الجنازة ، وأخبرته ، بعينين مسبلتين ، وهى تتضرج خجلاً مرات عديدة ، أنها جد آسفة لما كان بينهما ، من قبل ، من سوء تفاهم . وأنها لا تحس الآن أن لها حقاً أن تطلب منه شيئاً ، إلا أن يأذن لها ، بعد الصدمة التى تلقتها ، أن تبقى بضع أسابيع فى البيت الذى كم أحبته ، وكم ضحت فيه بالكثير . ولم تملك إلا أن تبكى عند هذه الكلمات . فمس قلب پيير أن هذه الأميرة ، التى تشبه التمثال ، يمكن أن تتغير إلى هذا الحد . فأخذ يدها واستماحها مغفرة ، دون أن يعرف فيم . ومن ذلك اليوم تغيرت كبرى الأميرات بإزاء پيير ، وبدأت تحيك له وشاحاً مخططاً .

قال الأمير ڤاسيلى ، وهو يقدم له عقداً يوقعه لصالح الأميرة :

— افعل ذلك من أجلى ، ياعزيزى . إنها اضطرت لاحتمال الكثير ، بعد كل شىء ، من المرحوم .

كان الأمير ڤاسيلى قد انتهى إلى ضرورة رمى هذه العظمة — حوالة بثلاثين ألف روبل — للأميرة المسكينة . حتى لا يخطر لها أن تتكلم عن دوره فى مسألة المحفظة المطعمة . ووقع پيير العقد ، فزاد عطف الأميرة بعد ذلك . وأبدت له الأميرتان الصغيرتان أيضاً عطفاً ومحبة ، وبخاصة صغراهما ، الحلوة ذات الشامة . وكانت كثيراً ما تشعره بالارتباك

بابتساماتها ، وارتبا كما هى نفسها ، إذ تلقاه .

كان يبدو من الطبيعى جداً ، لپيير ، أن يحبّه الناس جميعاً ، وكان ليبدو له غير طبيعى ألا يحبه أحد ، فلم يملك إلا أن يؤمن بإخلاص أولئك الذين يحيطون به . وفضلا عن ذلك فلم يكن عنده وقت يسائل نفسه ما إذا كان هؤلاء الناس صادقين أم غير صادقين . كان مشغولا على الدوام ، وكان يحسّ دائماً حالة من النشوة اللطيفة البهيجة . كان يحس أنه مركز حركة عامة لها خطرها ، وأن شيئا ما يُنتظر منه على الدوام ، فإذا لم يفعله أحزن كثيراً من الناس وأحبط آمالهم لكنه إذا فعل هذا أو ذاك ، سار كل شىء على أحسن حال ، فكان يفعل مايُطلب إليه ، إلا أن تلك النتيجة السعيدة بقيت ، مع ذلك ، فى طيات المستقبل .

واستأثر الأمير ڤاسيلى ، أكثر من الجميع ، بمسائل پيير ، واستأثر پيير نفسه ، فى تلك الأيام الأولى . ومنذ وفاة الكونت بيزوخوف لم يفلت الفتى من قبضته . وكان يبدو بمظهر الرجل الذى يؤوده العمل ، فهو مرهق ومتألم ، لكنه على سبيل الشفقة ، لم يكن ليرضى أن يهجر هذا الفتى الذى لا حول له ، وهو بعد ذلك ابن صديقه القديم ، وصاحب مثل هذه الثروة الطائلة ، لنزوات القدر ومؤامرات الأوغاد . وكان خلال الأيام القلائل التى قضاها فى موسكو بعد وفاة الكونت بيزوخوف ، يدعو پيير ، أو يذهب إليه بنفسه ، ليخبره ماذا ينبغى أن يفعل ، فى لهجة الكلال واليقين ، كما لو كان يقول ، كل مرة :

— أنت تعرف أن العمل يغرقنى ، وإننى من قبيل العطف الخالص أكلف نفسى مؤونة الاهتمام بك ، كما تعرف حق المعرفة أن ما أقترح هو الشىء الممكن الوحيد .

قال الأمير ڤاسيلى ذات يوم ، وهو يغمض عينيه . ويمسك مرفق پيير بأصابعه ، ويتكلم كما لو كان يقول شيئا قد اتفق عليه منذ أمد بعيد ،

فلا يمكن الآن تغييره :

— حسناً ، ياصاحبي العزيز ، سنذهب من الغد ، وأخيراً ، سنبدأ الرحلة غداً ، وسأعطيك مكاناً فى عربتى . إننى جد سعيد . فقد سوّيت الآن كل أمورنا الهامة هنا ، وكان ينبغى أن أمضى من زمن طويل. هاك شيئاً قد تلقيته من المستشار ، كنت طلبته منه لأجلك ، وقد أدخلتَ فى السلك الدبلوماسى ، وعينتَ سيداً فى البلاط . والمستقبل الآن مفتوح أمامك فى السلك الدبلوماسى .

وعلى الرغم من لهجة اليقين المتعب الكليل التى قيلت بها هذه الكلمات ، فإن پيير ، وقد كان يفكر منذ زمن طويل فى مستقبله ، همّ بأن يقول شيئاً . إلا أن الأمير ڤاسيلى قاطعه ، بتلك النبرة العميقة المطايبة المتألفة التى تستبعد كل إمكان لمقاطعة حديثه ، وكان يستخدمها فى الحالات القصوى ، حين تقوم الحاجة لضرب خاص من ضروب الاقناع :

— ولكن ياعزيزى ، إننى فعلت ذلك من أجلى أنا ، لأرضى ضميرى ، ولا داعى لشكرى فلم يشكُ أحد قط من أنه يلقى قدراً أكبر مما ينبغى من الحب . ثم أنك حر ، فأنت تستطيع أن تطوّح بها من الغد ، لكنك سوف ترى بنفسك عندما تصل إلى بطرسبرج . فقد آن الأوان أن تبتعد عن هذه الذكريات الفظيعة .

وتنهد الأمير ڤاسيلى .

— نعم ، نعم ، يابنى . ويستطيع خادمى أن يذهب فى عربتك .

ثم أضاف :

— آه أوشكتُ أن أنسى . أنت تعرف ياعزيزى أنه كان بينى وأبيك حساب ينبغى أن يُسوى ، ولذلك فقد قبضت الإيراد المستحق من ضيعة ريازان ، وسوف أحتفظ به ، فلن تحتاج إليه . وسوف نفحص الحساب فيما بعد .

كان الأمير ڤاسيلي يعنى « بالإيراد المستحق من ضيعة ريازان» ، بضعة آلاف من الروبلات ، إيجاراً دفعه فلاحو پيير ،-واحتجره الأمير ڤاسيلي لنفسه .

ولقى پيير فى بطرسبرج ، كما كان قد لقى فى موسكو ، جو الرقة والمحبة بعينه . لم يكن ليستطيع أن يرفض المنصب الذى حصل عليه الأمير ڤاسيلى له ، أو الرتبة على الأصح — فلم يكن يفعل شيئاً — وكانت المعارف والدعوات والمشاغل الاجتماعية من الكثرة حتى أحس ، أكثر مما كان يحس فى موسكو ، شعوراً بالحيرة والارتباك والهرولة ، وانتظاراً مستمراً لخير ما ، أمامه دائماً ، لايبلغه أبداً .

كان الكثير من معارفه السابقين لم يعودوا الآن فى بطرسبرج . كان الحرس قد ذهبوا إلى الجبهة ، وأنزلت رتبة دولوخوف إلى نفر ، وكان أناتول بالجيش فى مكان ما بالأقاليم ، والأمير أندرو بالخارج ، فلم تسنح لپيير فرصة أن ينفق لياليه ، كما كان يحب ، فى الماضى أن ينفقها ، أو أن يفتّق ذهنه بالأحاديث الحميمة مع صديق أكبر منه سناً ، يكن له الاحترام . وكان وقته كله مبذولا فى حفلات العشاء والرقص ، ينفقه غالباً فى بيت الأمير ڤاسيلى ، برفقة زوجته الأميرة البدينة ، وبنته الجميلة هيلين .

وكانت آنا باڤلوڤنا شيرر ، شأنها شأن الآخرين ، تبدى نحو پيير ذلك التغير الذى حدث فى المجتمع ، فى موقفه بازائه .

كان پيير يحس فى حضور آنا باڤلوڤنا ، فيما سبق ، أن ما يقول لا محل له ولا كياسة فيه ولا يليق ، وأن التعليقات التى كانت تبدو له حاذقة بارعة وهى تتشكل فى ذهنه تصبح حمقاء حالما يتفوه بها ، بينما كانت أغبى تعليقات هيپوليت ، بالعكس ، تصدر عنه بارعة الذكاء . أما الآن فكل شىء يقوله پيير ساحر وإن لم تقل ذلك آنا باڤلوڤنا ، فقد كان بوسعه أن يرى أنها تود لو قالته ، وإنها إنما تمتنع احتراما لتواضعه .

وفى بداية شتاء ١٨٠٥ — ١٨٠٦ تلقى پيير إحدى رسائل آنا باڤلوڤنا المألوفة الوردية اللون بدعوة أضافت إليها : « سوف تجد هيلين الجميلة هنا ، ومن البهيج دائماً أن يراها المرء . »

وعندما قرأ پيير هذه العبارة ، أحسّ للمرة الأولى أن رابطة ما ، يراها الآخرون ، قد تكوّنت بينه وهيلين ، وأزعجته تلك الفكرة ، كما لو أن التزاماً قد فُرض عليه، لم يكن يسعه أن يفى به . وأسعدته فى الوقت نفسه على أنها افتراض يدعو للتسلية .

كانت حفلة آنا باڤلوڤنا « الصغيرة » ، تماثل الحفلة السابقة ، إلا أن الشىء الطريف الذى كانت تقدمه لضيوفها هذه المرة لم يكن مورتمار ، بل دبلوماسياً جاء حديثاً من برلين ، ومعه آخر تفاصيل زيارة الامبراطور ألكسندر لبوتسدام ، وكيف قطع الصديقان الجليلان على نفسيهما عهداً بالتحالف الذى لا انفصام لعراه ، للدفاع عن قضية العدالة فى وجه عدو الجنس البشرى . واستقبلت آنا باڤلوڤنا پيير بشىء طفيف من الكآبة يُعزى فيما يبدو إلى خسارة الفتى القريبة العهد ، بوفاة الكونت بزوخوف — كان الجميع يرون من واجبهم دائماً ، أن يؤكدوا لپيير أنه قد أصيب إصابة كبيرة بوفاة والده الذى لم يكن يعرفه — وكانت كآبتها تشبه كل الشبه تلك الكآبة الجليلة ، التى كانت تبديها عند ذكر صاحبة الجلالة الامبراطورة المعظمة ماريا فيدروڤنا ، فأحس پيير أن ذلك يدغدغ كبرياءه . ونظمت آنا باڤلوڤنا شتى الجماعات فى غرفة استقبالها ، بحذقها المألوف . كانت الجماعة الكبيرة التى كان فيها الأمير ڤاسيلى والجنرالات ، تستأثر بالدبلوماسى . وكانت هنالك جماعات أخرى إلى مائدة الشاى . وكان پيير يودّ لو انضم إلى الجماعة الأولى ، لكن آنا باڤلوڤنا كانت فى انفعال القائد ، فى ساحة القتال ، تخطر له آلاف الأفكار الجديدة الباهرة ، ولا يكاد يتاح له وقت لتنفيذها ، فلما رأت پيير مست كمه بذراعها قائلة :

— انتظر قليلا . عندى شىء بالنسبة لك هذا المساء .

ورمقت هيلين ، وابتسمت لها :

— ياعزيزتى هيلين ، تعطفى على عمتى المسكينة التى تعبدك . اذهبى واجلسى معها عشر دقائق ، وحتي لايضجرك هذا جداً ، هوذا الكونت العزيز الذى لن يرفض أن يرافقك .

وذهبت الجميلة الى العمة ، لكن آنا باقلوفنا احتجزت پيير ، وهى تبدو كما لو كان عليها أن تعطيه بضع تعليمات نهائية ضرورية .

قالت لپيير ، مشيرة إلى الجميلة الشامخة إذ كانت تنساب مبتعدة :

— أليست رائعة ؟ ويالها من رشاقة ... ! مثل هذه الفتاة الصبية ، وكل هذه الكياسة ، كل هذا الكمال الرائع فى السلوك ... ! انما يصدر ذلك عن قلبها . سعيدٌ ذلك الذى نظفر بها ..! فإن أقل الرجال حظاً من المكانه فى المجتمع ، سوف يشغل ، معها ، أرقى مراتب المجتمع . ألا تعتقد ذلك ؟ إنما أردت أن أعرف رأيك .

ثم تركته يمضى .

وأجاب پيير يوافقها باخلاص على أن هيلين كاملة السلوك . فانه لوكان قد فكر فى هيلين إطلاقاً ، فانما فكر على وجه الدقة ، فى جمالها وحذقها الملحوظ فى أن تبدو ، فى المجتمع ، جليلة الكرامة ، على صمتها .

واستقبلتها العمة العجوز فى ركنها ، وإن بدت راغبة فى أن تخفى عبادتها لهيلين ، ومالت ، على الأرجح ، أن تبدى خوفها من آنا باقلوفنا . كانت تنظر إلى بنت أخيها كما لو كانت تتساءل ماذا تفعل بهؤلاء الناس .

وعندما تركتهم آنا باقلوفنا ، مست كم پيير ثانية وهى تقول :

— أرجو ألا تقول ثانية أن الجو يدعو للضجر فى بيتى .

ورمقت هيلين .

ابتسمت هيلين ، بنظرة توحىء أنها لم تكن تسلم بإمكان أن يراها

أحد ، دون أن يفتتن بها . وسعلت العمة ، وبلعت ريقها ، وقالت بالفرنسية أنها مسرورة جداً لرؤية هيلين ، ثم التفتت إلى پيير بنفس كلمات الترحيب ونفس النظرة . وفى وسط حديث ممل متعثر ، التفتت هيلين إلى پيير بالابتسامة الجميلة المشرقة التى كانت تمنحها الجميع . وكان پيير قد ألف هذه الابتسامة ، ولم يكن لها عنده الا أقل معنى ، حتى لم يلق إليها بالا .
وكانت العمة توشك أن تأخذ فى حديث عن مجموعة من صناديق السعوط كان يملكها والد پيير ، وتريهما صندوقها . وطلبت الأميرة هيلين أن ترى صورة زوج العمة على غطاء الصندوق .
قال پيير :
— من المحتمل أن هذا من عمل ڤينيس .
مشيراً إلى مصوِّر شهير للصور المنمنمة ، وانحنى على المائدة ليأخذ صندوق السعوط ، محاولا أن يسمع ما يقال على المائدة الأخرى .
ونهض نصف نهوض ، ينوى أن يدور حول المائدة ، لكن العمة ناولته صندوق السعوط ، وهى تمرره من فوق ظهر هيلين . وانحنت هيلين إلى الأمام لتفسح السبيل ، ونظرت إليه بابتسامة . كانت ، شأنها دائماً فى حفلات السهرة ، ترتدى ثوباً وفقا للزى الشائع حينذاك ، عارى الصدر والظهر إلى حد كبير . وكان صدرها ، الذى كان يبدو دائما كالرخام فى عينى پيير ، قريباً إليه جداً حتى لم يكن فى وسع عينيه القصيرتى النظر إلا أن تحسا بالسحر الحى فى عنقها وكتفيها ، قريبين إلى شفتيه ، حتى لم يكن يحتاج إلا أن يحنى رأسه قليلا حتى يمسهما . وأحس دفء جسمها ، وعبق عطرها ، وصرير صديريتها إذ تتحرك . لم ير جمالها الرخامى تتكون منه وحدة كاملة مع ردائها ، بل رأى كل فتنة جسدها لاتغطيه إلا ثيابها . وما أن رأى ذلك ، مرة ، حتى لم يملك إلا أن يفشو فى شعوره ، كما أننا لا نستطيع أن نجدد وهماً إذا انكشفت أمامنا حقيقته .

كان يبدو أن هيلين تقول :

ـ وإذن فأنت لم تلاحظ أبداً من قبل كم أنا جميلة .؟ ولم تلاحظ أنني امرأة ..! نعم ؟ إنني امرأة قد تصبح ملكا لأى شخص ـ ولك أنت أيضا .

ذلك ما كانت تقول نظرتها .

وفى تلك اللحظة أحس پيير أن هيلين يمكن ، بل يجب أن تكون زوجته ، وأن لا معدى عن ذلك .

وعرف ذلك ، فى تلك اللحظة ، بيقين من يقف معها أمام الهيكل . لم يكن يعرف كيف ومتى يتم ذلك ، ولا كان يعرف ما إذا كان فى ذلك خير ، بل كان يحس ، وان كان لايدرى لِمَ ، أن ذلك شرّ ، لكنه عرف أنه سوف يحدث .

غضّ پيير عينيه ، ورفعهما ثانية ، وودّ لو أنه رآها مرة أخرى جمالا بعيداً نائياً عنه ، كما كان يراها كل يوم حتى ذلك الحين ، لكنه لم يعد يسعه ذلك . لم يكن يسعه ذلك ، كما لا يسع رجلا رأى حزمة من عشب البرارى من خلال الضباب فظنها شجرة ، أن يراها شجرة بعد أن يتحقق من أنها حزمة من العشب . كانت وثيقة القرب منه ، على نحو مخيف . وكان لها عليه ، من الآن ، سيطرة ، ولم يعد الآن بينهما حاجز ، إلا حاجز من إرادته وحدها .

وجاء صوت آنا باڤلوڤنا :

ـ حسناً ، سأترككم الآن فى ركنكم الصغير . فانى أرى أنكم فى خير حال هنا .

ونظر پيير حواليه وقد تضرج خجلا ، يعالج فى قلق أن يتذكر ما إذا كان قد أتى شيئاً يُلام عليه . كان يلوح له أن كل الناس يعرفون ماحدث له ، كما كان يعرفه بنفسه .

وبعد قليل أقبل إلى حلقة كبيرة ، فقالت له آنا باﭬلوﭬنا :

— سمعت أنك تعيد تأثيث بيتك فى بطرسبرج ؟

كان ذلك صحيحاً . كان المهندس المعمارى قد قال له أن ذلك ضرورى ، وكان پيير ، دون أن يعرف لِمَ ، يعيد تأثيث وإعداد بيته الضخم فى بطرسبرج .

قالت آنا باﭬلوﭬنا مبتسمة إلى الأمير ﭬاسيلى :

— هذا حسن . لكن لا تنتقل من عند الأمير ﭬاسيلى . فمن الخير أن يكون للمرء صديق كالأمير ﭬاسيلى . إننى أعرف من ذلك شيئاً ؟ أليس كذلك ؟ وأنت ما تزال صغيراً جداً . أنت تحتاج النصيحة . لا تغضب منى إذا مارست حق امرأة عجوز .

وصمتت ، كما تصمت النساء دائماً ، إذ ينتظرن شيئاً يقال ، بعد أن يذكرن سنهن . واستأنفت :

— أما إذا تزوجت ، فذلك شىء مختلف .

وهى توحد بينهما معاً فى نظرة واحدة . لم ينظر پيير إلى هيلين ، ولا نظرت إليه . لكنها كانت وثيقة القرب منه على نحو مخيف . فتمتم شيئا ، وتضرج وجهه .

فلماد عاد للبيت لم يطق النوم فترة طويلة ، من التفكير فيما حدث . ماذا حدث ؟ لاشىء . إنما فهم أن المرأة التى عرفها طفلة ، والتى كانت إذا ما ذُكر جمالها ، قال مشتت الذهن : « نعم إنها جميلة » ، فهم أن هذه المرأة قد تكون ملكا له .

وفكر :

— لكنها غبية . لقد قلت بنفسى إنها غبية . وهناك شىء دنىء ، شىء شرير ، فى الاحساس الذى تثيره عندى . وقد قيل لى أن أخاها أناتول كان يعشقها ، وأنها كانت تعشقه ، وكانت هناك فضيحة حقا ، ولذلك أُبعد ..

وهيپولت أخوها ... والأمير ڤاسيلى أبوها ... وكل هذا ليس من الخير فى شىء ...

على أنه إذ كان يفكر فى ذلك — وكان تفكيره مايزال غير مكتمل — أدرك نفسه يبتسم . وأدرك أن اتجاهاً آخر من الفكر قد انشق ، وأنه إذ كان يفكر فى تفاهتها كان يحلم أيضاً كيف ستكون زوجته ، كيف سوف تحبه وتصبح جدّ مختلفة ، وكيف أن كل ما فكر عنها وسمع عنها ، عساه يكون زائفاً غير صحيح . ورآها ، ثانية ، لا ابنة الأمير ڤاسيلى ، بل تصور جسدها كله لا يغطيه إلا رداؤها الرمادى .

— لا .. أبداً ..! لِمَ لم تخطر لى هذه الفكرة أبداً من قبل؟

وقال لنفسه مرّة أخرى أن ذلك مستحيل ، أن هناك شيئاً غيرطبيعى ، وغير شريف ، فيما يبدو له ، فى هذا الزواج . واستعاد كلماتها ونظراتها السابقة ، وكلمات أولئك الذين رأوهما معا ، ونظراتهم . استعاد كلمات آنا بافلوڤنا ونظراتها عندما حدثته عن بيته ، واستعاد آلافاً من مثل هذه التلميحات ، من الأمير ڤاسيلى وغيره ، واستبد به الفزع ، فعساه يكون قد ارتبط فعلا ، بطريقة ما ، بأن يفعل شيئاً بادى الخطأ لا ينبغى له أن يفعله . إلا أنه فى نفس الوقت الذى كان يعبّر فيه لنفسه عن ذلك اليقين ، قامت صورتها فى جانبٍ آخر من ذهنه ، بكل جمالها النسوى .

الفصل الثالث

كان على الأمير ڤاسيلى ، فى نوڤمبر ١٨٠٥ ، أن يذهب فى رحلة للتفتيش فى أربع مديريات مختلفة . كان قد رتب ذلك لنفسه حتى يزور ضياعه المهملة فى نفس الوقت ، ويأخذ ابنه أناتول حيث كانت ترابط فرقته ، فيذهب معه فى زيارة الأمير نيكولاس بولكونسكى لتسوية مسألة زواجه بينت ذلك الشيخ العجوز . ولكن الأمير ڤاسيلى ، قبل أن يبارح بيته

ويتولى هذه الأعمال الجديدة ، كان عليه أن يسوى الأمور مع پيير ، وكان هذا الأخير ، في الواقع ، قد أخذ ينفق أياماً بطولها فى البيت ، أى فى بيت الأمير ڤاسيلى حيث كان ينزل . وكان يبدو غريباً ، مهتاجاً ، وغبياً فى محضر هيلين ، كما ينبغى للعشاق أن يكونوا ، لـكنه مع ذلك لم يخطبها .

قال الأمير ڤاسيلى لنفسه ، وهو يتنهد بأسف ، ذات صباح :

ـــ هذا كله جميل جداً ، لـكن الأمور يجب أن تسوَّى .

وهو يشعر أن پيير كان مَدينٌ له بالـكثير ـــ « ولـكن دعك من هذا » ـــ وأنه لا يُحسِن التصرف فى هذه المسألة .

وفكّر ، متحققاً من طيبة قلبه :

ـــ الشباب ، والطيش ... حسنا ، معه الله ولـكن يجب أن تنتهى المسألة إلى نتيجة محددة . سيكون بعد الغد عيد ليليا (١) . وسوف أدعو شخصين أو ثلاثة ، فإذا لم يفهم ما ينبغى له أن يفعل ، فسأتولى الأمر بنفسى ، نعم سأتولى الأمر . إننى أبوها .

بعد ستة أسابيع من حفلة آنا باڤلوڤنا « الصغيرة » ، وبعد تلك الليلة المؤرقة التى قرَّ بها عزمه أن زواجه لهيلين سيكون كارثة . وأنه ينبغى له أن يتحاماها ويُبعد عنها ، لم يبارح پيير بيت الأمير ڤاسيلى ، على الرغم من قراره . وكان يشعر ، بفزع ، أنه يزداد كل يوم ارتبـاطا بها ، فى أعين الناس ، وأنه من المستحيل عليه أن يعود إلى تصوره السابق عنها ، وإنه لا يستطيع أن يفلت منها ، وأنه ، على ما فى الأمر من هول ، سيضطر أن يربط مصيره بمصيرها ، وقد كان عساه يستطيع أن يحرز نفسه ، لولا أن الأمير ڤاسيلى الذى ما كان يقيم الحفلات فيما سبق إلا نادراً ،

---

(١) ليليا ، اسم التدليل لهيلين .

لم يكد يدع يوما يمر دون أن يقيم حفلة سهرة . وكان على پيير أن يشهدها، إلا إذا كان يريد أن يفسد جو البهجة العام ، وأن يحبط آمال الجميع . وكان الأمير ڤاسيلى ، فى اللحظات النادرة التى يكون فيها بالبيت ، يأخذ يد پيير ، فى مروره ، ويشدها إلى أسفل ، أو يمد خده المغضن الحليق إليه ، بذهن مشتت ، ليقبّله ، ويقول :

— إلى الغد ..

أو يقول :

— لا تغفل الحضور للغداء ، وإلا ما رأيتك ..

أو يقول :

— إننى باقٍ من أجلك ..

وهكذا .

وعلى الرغم من أن الأمير ڤاسيلى . حينما كان يبقى من أجل پيير — كما كان يقول — لم يكن ليتحدث إليه كلمتين أو يكاد .. فقد كان پيير يشعر أنه لا يستطيع أن يخيّب رجاءه . وكان يقول لنفسه كل يوم شيئاً بعينه :

— حان الوقت أن أفهمها ، وأن يستقر عزمى على حقيقتها . أ كنت مخطئا من قبل ، أم أنا مخطىء الآن ؟ لا ، ليست غبية . إنها فتاة رائعة .

لكنه كان أحيانا يقول لنفسه :

— إنها لا تقترف خطأ أبداً، لا تقول أبداً شيئاً غبياً. إنها تتكلم قليلا، لكن ماتقول دائماً واضح بسيط ، ومن ثم فهى ليست غبية . إنها لم تستشعر الخجل أبداً، وليست الآن خجلة ، ومن ثم فلا يمكن أن تكون امرأة رديئة..!

كان كثيراً ما يتأمل أو يفكر بصوت عالٍ فى حضورها ، وكانت تجيبه دائما إما بتعليق وجيز ولكنه مناسب — يبدى أنها لا تعلّق اهتماما — أو بنظرة صامتة وابتسامة تبدى لپيير تفوقها ، بشكل أكثر وضوحاً من أى شىء آخر. كانت محقة فى اعتبارها كل جدلٍ حمقاً وهراء

بإزاء تلك الإبتسامة .

كانت دائماً تحدثه بابتسامةٍ وضاءة كلها ثقة به ، لا يقصد بها إلا إليه وحده فإن فيها شيئاً أكثر مغزى من الابتسامة العامة التى كانت تضىء وجهها عادة . كان پيير يعرف أن الجميع ينتظرون منه أن يقول كلة ، أن يتجاوز حداً ، وكان يعرف أنه سوف يخطو عبر هذا الحدّ ، إن آجلاً أو عاجلاً ، لكن هلعاً غير مفهوم كان يستأثر به ، إذ يفكر فى تلك الخطوة المخوفة وأحس نفسه ألف مرة ، خلال ذلك الشهر ونصف الشهر، مدفوعاً به ، أدنى فأدنى ، إلى الهوة المخوفة ، وكان پيير يقول لنفسه :

— ماذا أفعل؟ إننى بحاجة إلى العزم .أيمكن أن ليس عندى من العزم شىء؟

وكان يريد أن يقر على قرار، لكنه كان يحس، باستياء وحيرة ، أنه ، فى هذا الأمر ، تعوزه قوة الإرادة التى عرفها فى نفسه . وكانت حقاً من خصاله . كان پيير واحداً من أولئك الذين لا يكونون أقوياء إلا إذا أحسوا أنفسهم أبرياء كل البراءة ، ومنذ اليوم الذى غلبه على أمره إحساس بالشهوة ، بينما كان منحنياً على صندوق السعوط فى بيت آنا باڤلوڤنا ، كان هناك حسٌ لايقر به ، من الإثم بتلك الشهوة ، يشلّ إرادته .

وفى يوم عيد هيلين ، اجتمعت جماعة صغيرة من « جماعتهم فقط » — كما قالت زوجته — لتتعشى عند الأمير ڤاسيلى . وكان هؤلاء الأقارب والأصدقاء جميعاً ، قد أُفهموا أن مصير الفتاة سوف يُقرر هذا المساء . كان الضيوف جالسين إلى العشاء وكانت الأميرة كوراچينا ، وهى امرأة شامخة مهيبة ، كانت وسيمة ذات يوم ، تجلس فى صدر المائدة . وإلى كل من جانبيها جلس الضيوف الذين لهم قدرٌ من الأهمية : جنرال شيخ وزوجته ، وآنا ڤاڤلوڤنا شيرر . وجلس إلى الطرف الآخر الضيوف الأحدث سناً والأهون خطراً ، كما جلس هناك أعضاء العائلة ، وپيير وهيلين ، جنباً إلى جنب . لم يكن الأمير ڤاسيلى يتعشى ، بل مضى يدور حول المائدة ،

فى مزاج مرح ، يجلس تارة بجانب أحد الضيوف ، وتارة بجانب ضيف آخر . وكان يقول لـكل منهم شيئا لطيفا ، دون كبير احتفال ، باستثناء بيير وهيلين ، فقد بدا أنه لايلقى بالاً لحضورهما . كان يبعث الحياة فى الحفلة كلها . وكانت الشموع تحترق وضّاءة ، والأوانى الفضية والبلورية تومض ، كذلك كانت تومض حلّى السـيدات ، والذهب والفضة فى أشرطة أكتاف الرجال . وكان الخدم ، فى أزيائهم القرمزية ، يتحركون حول المائدة ، وتمتزج صلصلة الصحاف والسكاكين ، والأقداح ، بطنين ملؤه الحياة من أحاديث كثيرة . وسُمع تشريفاتى شيخ ، فى أحد طرفى المائدة ، يؤكد لبارونة عجوز أنه يحبها حباً مشـبوباً ، فضحكت ، وفى طرف آخر من المائدة ، كانت تسـمع قصة أحزان امرأة ما تسمى مارى فيـكتورفنا . وكان الأمير ڤاسيلى ، فى وسط المائدة ، يجتذب انتباه الجميع . كان يحكى للسيدات ، بابتسامة فـكهة ، عن اجتماع المجلس الامبراطورى يوم الأربعاء الماضى ، حيث كان الحاكم العام العسكرى الجديد لبطرسبرج ، سيرجى كوزميتش ، قد تلقى وقرأ المرسوم الشهير حينذاك ، من الجيش إلى سـيرجى كوزميـتش ، وقال الامبراطور أنه يتلقى من كل الجوانب إقرارات بولاء الشعب ، وأن الإقرارالوارد من بطرسبرج قد سرّه على الأخص ، وأنه فخور بأن يكون على رأس مثل هذه الأمة ، وسيجهد أن يكون جديراً بها . كان هذا المرسوم يبدأ بكلمات : سيرجى كوزميتش . تصلنى إقرارات من كل الجوانب .. إلخ .

قالت إحدى السيدات :

— وإذن . فهو لم يتجاوز : « سيرجى كوزميتش » ؟

وأجاب الأمير ڤاسيلى ضاحكا :

— بالضبط ، لم يتجاوزه قيد شعره .. : سيرجى كوزميتش .. من كل الجوانب .. من كل الجـوانب .. سيرجى كوزميتش .. مسكين

ڤيازميتينوف ، لم يستطع أن يقرأ أكثر من ذلك . بدأ يقرأ الرسوم ، مرة بعد مرة ، لـكنه ما يكاد يصل إلى «سيرجى» حتى يبكى ، «كوزميتش» دموع ، «من كل الجوانب» تخنقه الدموع ، ومن ثم لم يستطع أن يتجاوز ذلك. ويخرج منديله مرة أخرى، ويقول مرة أخرى : «سيرجى كوزميتش، من كل الجوانب ..» ، ودموع ، حتى طلبَ أحدهم فى النهاية أن يقرأه عنه
وردد أحدهم ضاحكا :

— « كوزميتش .. من كل الجوانب .. ودموع » .

هتفت آنا باڤلوڤنا ، من طرفها على المائدة ، وهى ترفع إصبعاً متوعدة :

— لا تـكونوا قساة ، إنه رجل طيب جدير بكل احترام ، صاحبنا العزيز ڤيازميتينوف .

وضحك الجميـع كثيراً . وكان الجميع ، على صدر المائدة ، حيث يجلس الضيوف المـكرمون، يبدون متوفزين بالبهجة والمرح ، من أثر طائفة منوعة من الإحساسات المثيرة . إلا پيير وهيلين وحدهما ، فقد جلسا صامتين ، جنباً إلى جنب ، فى آخر المائدة تقريباً وابتسامة يكاتمان بها تضىء وجهيهما، كليهما ، ابتسامة لا شأن لها بسيرجى كوزميتش ، ابتسامة من الخجل لمشاعرهما إلا أنه مهما كان سائر الضيوف جميعاً يضحكون ، ويتكلمون، ويتبادلون الدعابات ، ومهما كانوا يستمتعون بنبيذ الراين ، والشواء ، والمثلجات ، ومهما كانوا يتحامون النظر إلى هذين الصغيرين ، ومهما بدا أنهم لا يلقون إليهما بالاً ولا اهتماماً ، فقد كان المرء يمكنه أن يستشعر ، من نظرات يلقونها أحياناً ، أن حـكاية سيرجى كوزميتش ، والضحك ، والطعام ، كانت كلها تظاهراً ، وأن انتباه الحضور جميعاً إنما هو موجه إلى پيير وهيلين . كان الأمير ڤاسيلى يقلد بكاء سيرجى كوزميتش ، وعيناه فى نفس الوقت ترمقان ابنته ، وبينما يضحك كان مظهر وجهه يقول بجلاء

« نعم ... المسألة تتقدّم ، وسوف يسوى اليوم كل شيء . » ، وكانت آنا بافلوفنا تتوعده ، بالنيابة عن «صاحبنا العزيز ڤيازميتينوف» ، والأمير ڤاسيلى يقرأ فى عينيها اللتين رمقتا پيير لحظة ، تهنئةً بزوج ابنته المستقبل ، وسعادة ابنته . وتنهدت الأميرة العجوز بحزن ، بينما كانت تقدم بعض النبيذ للسيدة العجوز إلى جانبها ، وحدجت ابنتها بغضب ، وكان يبدو أن تنهدتها تقول : « نعم ، لم يبق لى ولكِ شيء إلا أن نحتسى النبيذ الحلو ، ياعزيزتى ، وقد جاء الوقت الآن أن يكون هؤلاء الصغار على هذه السعادة ، بمثل هذه الجسارة والاستفزاز . » ، وفكّر ديبلوماسىّ وهو يرمق وجهى المحبيْن السعيدين : « أىّ هراء هذا الذى أقول . ! هذه السعادة هناك !.. »

ففى وسط الاهتمامات التافهة المصطنعة ، التى لادلالة لها ، والتى توحّد هذه الجماعة ، تسلل الإحساس البسيط بالجاذبية بين فتىً وفتاة يفيضان صحة وشباباً ووسامة . وكان هذا الإحساس الإنسانى يسود كل ما عداه ، ويتسامى فوق كل الثرثرة المصطنعة . كانت الدعابات تسْقط لا حياة فيها ، والأخبار لا تثير اهتماماً ، وكانت الحيوية واضحة التكلف . ولم يكن الضيوف وحدهم يحسون ذلك ، بل الخدم أيضاً ، فكانوا ينسون واجباتهم وهم ينظرون إلى هيلين الجميلة ، بوجهها الوضىء ، ووجه پيير ، عريضاً ، محمرًّا ، سعيداً وإن كان فيه قلق وكان يبدو أن ضوء الشموع نفسه مركّز على هذين الوجهين السعيدين وحدهما .

وكان پيير يحس أنه فى قَلْب ذلك كله ، وكان ذلك يسره ويُربكه فى الوقت نفسه . كان كرجل قد استغرقه شيء ما كل الاستغراق . لم يكن يسمع أو يرى شيئاً فيما عداه ، بوضوح . وبين الحين والحين تبرق فى ذهنه ، على غير انتظار ، أفكار وانطباعات منعزلة لا رابطة بينها ، تأتيه من عالم االواقع .

كان يفكّر :

ـــ إذن فقد انتهى كل شيء ..! وكيف حدث كل ذاك ..؟ وما أسرعه ..! إنني الآن أعرف أنه يتحتّم أن يحدث ذلك ، لامحالة ، لا بسببها وحدها ، ولا بسببي وحدي، بل بسبب الناس جميعاً . إنهم جميعاً ينتظرون ذلك ، وهم على يقينٍ من حدوثه ، حتى أنني لا أستطيع ، لا أستطيع ، أن أحبط آمالهم . ولكن كيف سيحدث ذلك ؟ لست أدري ، لكنه سوف يحدث بالتأكيد ..!

وهو يرمق هاتين الكتفين الباهرتين ، قريبتين من عينيه .

أو كان يحسّ ، فجأة ، أنه خجلٌ من شيءٍ لا يدريه . كان يحس من الحرج أن يجتذب انتباه الجميع ، وأن يروا فيه رجلاً سعيد الحظ ، وأن ينظروا إليه ، بوجهه الذي لا وسامة فيه ، كأنه پاريس وقد تملّك هيلين(١).

ولكنه كان يعزّي نفسه مفكراً أنه :

ـــ لا شك أن الأمر كذلك دائما ، وسيبقى دائما كذلك ..! ثم ماذا فعلتُ أنا حتى يحدث هذا ؟ كيف بدأ ؟ سافرت من موسكو مع الأمير ڤاسيلي . ثم لم يكن هناك شيء ، عندئذ . فلماذا لا أنزل ببيته ؟ ثم لعبت الورق معها ، والتقطت لها حقيبتها ، وركبت العربة معها للنزهة . كيف بدأت المسألة ، ومتى حدثت كلها ؟

وها هو ذا الآن يجلس إلى جانبها ، خطيبها ، يرى ويسمع ويحس قربها منه . وتردّد أنفاسها ، وحركاتها ، وجمالها . ثم يبدو له بغتة أنها ليست هي الخارقة الجمال ، بل هو ، ولذلك كانوا جميعا ينظرون إليه ، فيدغدغ كبرياءه هذا الاعجاب السائد ، ويبسط صدره ، ويرفع رأسه ، ويبتهج لحظّه السعيد . وسمع فجأة صوتاً مألوفاً يكرّر له ما يقول للمرة الثانية . إلا أن پيير بلغ من استغراقه أنْ لم يفهم ما يقال .

---

(١) إشارة الى الإلياذة .

فردّد الأمير ڤاسيلي للمرة الثالثة :

— إنني أسألك متى بلغتك آخر الأخبار عن بولكونسكي . ما أشد تشتت ذهنك يا صاحبي العزيز .

وابتسم الأمير ڤاسيلي ، ولاحظ پيير أن الجميع كانوا يبتسمون له ، ولهيلين ففكّر :

— حسناً ، وماذا إذن ؟ ما دمتم تعرفون جميعا ؟ ماذا إذن ؟ إنها الحقيقة . ! .

وابتسم هو نفسه ابتسامته اللطيفة التي تشبه ابتسامة الأطفال ، وابتسمت هيلين أيضاً .

وردّد الأمير ڤاسيلي ، متظاهراً أنه يريد أن يعرف الإجابة حتى يسوّي خلافاً :

— متى تلقيت آخر خطاب ؟ أكان من أولمتز ؟

وفكّر پيير :

— كيف يمكن للمرء أن يفكر في مثل هذه التوافه ؟

وأجاب متنهداً :

— نعم من أولمتز .

وبعد العشاء نهض پيير ، وشريكته ، يتبعان الآخرين إلى غرفة الاستقبال . وبدأ الضيوف يتفرقون ، ومضى بعضهم دون أن يودّع هيلين . وكان البعض الآخر ، كما لو لم يكونوا يرغبون أن يشغلوها عن عمل هام ، يقبلون عليها لحظة ، ثم يسارعون بالذهاب ، ويرفضون أن تودعهم حتى الباب . وبقي الديبلوسي على صمته الكئيب وهو يغادر غرفة الاستقبال . كان يصور لنفسه بطلان حياته الديبلوماسية ، وقلة جدواها ، بالمقارنة بسعادة پيير وزام الجنرال العجوز متذمراً في وجه زوجته عند ما سألته عن حال ساقه ، مفكّراً :

— أوه . تلك الحمقاء العجوز . هذه الأميرة هيلين ستظل جميلة حتى عند ما تبلغ الخمسين .

وهمست آنا باڤلوڤنا للأميرة العجوز ، وهى تقبلها قبلة مدوية :

— أظنني أستطيع أن أهنئك . لو لم يكن عندى هذا الصداع لبقيت بعضاً من الوقت أيضاً .

فلم تجب الأميرة العجوز ، كانت تعذبها غيرتها من سعادة ابنتها .

وبينما كان الضيوف ينصرفون بقى پيير فترة طويلة وحده مع هيلين فى غرفة الاستقبال الصغيرة حيث كانا يجلسان . كان قد بقى معها وحده ، كثيراً ، فى خلال الأسابيع الستة الماضية ، لكنه لم يحدثها أبداً عن الحب . أما الآن فقد أحس ذلك محتوماً لا معدى عنه ، لكنه لم يسعه أن يقر قراره على اتخاذ الخطوة النهائية . كان يستشعر خجلا ، وأنه يشغل مكان غيره هنا إلى جانب هيلين . وهناك صوت داخلى يهمس إليه : « هذه السعادة ليست لك . هذه السعادة لأولئك الذين ليس فيهم مايوجد فى داخلك » .

إلا أنه لما كان عليه أن يقول شيئاً ، فقد بدأ بسؤالها عما إذا كانت راضية عن الحفلة . فأجابت ، بطريقتها البسيطة المعهودة أن هذا العيد كان من أكثر أعيادها مدعاة لسرورها .

كان بعض ذوى القربى الأقرباء لم ينصرفوا بعد . وكانوا يجلسون فى غرفة الاستقبال الكبيرة . وأقبل الأمير ڤاسيلى إلى پيير بخطى متراخية . نهض پيير وقال أن الوقت متأخر فرمقه الأمير ڤاسيلى بنظرة تساؤل صارمة طويلة ، كما لو كان ما قاله پيير من الغرابة بحيث لم يكن المرء ليستطيع أن يفهمه . لكن تعبير القسوة تغير ، وشدّ يد پيير إلى أسفل ، وأجلسه ، وابتسم بمحبة ، وسأل وهو يلتفت على الفور إلى ابنته يخاطبها بتلك اللهجة التى لا احتفال فيها ، من الرقة المألوفة المعهودة عن أولئك الآباء الذين ما فتئوا يدللون أطفالهم منذ طفولتهم ، وإن كان الأمير ڤاسيلى

قد اتخذ هذه اللهجة تقليداً لآباء آخرين :

— حسناً ، يا ليليا ؟

ثم التفت إلى پيير مرة أخرى .

وقال وهو يفك زرار صديريته العلوى :

— سيرجى كوزميتش — من كل الجوانب ..

فابتسم پيير ، ولكن ابتسامته نمت عن معرفة بأن ما يعنى الأمير ڤاسيلى، عندئذ ، ليس بحكاية سيرجى كوزميتش. ورأى الأمير ڤاسيلى أن پيير كان يعرف ذلك ، فتمتم فجأة بشىء ما ، ومضى . وبدا لپيير أن الأمير نفسه كان مرتبكا . ومس قلبه مرأى اضطراب هذا الرجل الشيخ الذى قضى حياته فى المجتمع ، فنظر إلى هيلين ، وبدت هى أيضاً مبلبلة الخاطر ، ولاح أن نظرتها تقول : «حسناً ، إن ذلك خطؤك أنت » .

فجال بذهن پيير :

— يجب أن تتخذ تلك الخطوة ، لكنى لا أستطيع ، لا أستطيع ..!

وأخذ يتكلم ثانية عن أمور لا بال لها ، عن سيرجى كوزميتش ، وسأل عن المقصود من الحكاية ، فلم يكن قد سمعها كما ينبغى . فأجابت هيلين مبتسمة أن الحكاية فاتتها هى أيضاً .

ولما عاد الأمير ڤاسيلى إلى غرفة الاستقبال كانت الأميرة زوجته تتكلم بصوت خفيض إلى سيدة تميل للكبر ، عن پيير :

— بالطبع ، أنه زواج باهر جداً ، لكن السعادة يا عزيزتى ...

فأجابت السيدة التى تميل للكبر :

— إن الزواج يعقد فى السماء .

فمر بهما الأمير ڤاسيلى ، وقد بدا أنه لم يسمع إلى السيدتين ، وجلس على أريكة فى ركن بعيد من الغرفة ، وأغمض عينيه ، وبدا أنه ينعس ، مالت رأسه إلى الأمام ، ثم استنهض نفسه .

وقال لزوجته :

ــ آلين ، اذهبي لترى ماذا يفعلان .

مضت الأميرة إلى الباب ، ومرت به ، بمظهر من الكبرياء وقلة الاحتفال ، وألقت نظرة إلى غرفة الاستقبال الصغيرة . كان پيير وهيلين مازالا يجلسان ويتكلمان ، كما كانا من قبل .

قالت لزوجها :

ــ لايزالان كما هما .

فعبس الأمير ڤاسيلي ، وهو يلوى فمه ، وارتعش خداه ، وارتسم على وجهه تعبير فظ جاف منفر ، خاص به . ونفض نفسه ، ونهض ، وألقى برأسه إلى الوراء ، ومر بالسيدتين بخطوات عازمة مصممة ، ودخل غرفة الاستقبال الصغيرة . ومضى مبتهجاً ، بخطوات سريعة ، إلى پيير . كان على وجهه ظفر وانتصار بلغ من غرابته أن نهض پيير ، منزعجاً ، لمرآه .

قال الأمير ڤاسيلي :

ــ الحمد لله ..! قالت لى زوجتى كل شىء ..!

ووضع ذراعاً حول پيير ، والذراع الأخرى حول هيلين .

ــ يا بنى العزيز ... ليليا .. إننى فى غاية ، فى غاية السرور .

وارتعش صوته .

ــ إننى كنت أحب أباك .. وستكون لك زوجة صالحة ... باركـكما الله ..!

وعانق ابنته ، ثم عانق پيير ، وقبله بفمه الكريه الرائحة . وكانت الدموع فعلا تندى خديه .

وهتف :

ــ أيتها الأميرة ، تعالى هنا ..!

فجاءت الأميرة ، وبكت أيضاً . وكانت السيدة التى تميل لكبر السن

تستخدم منديلها كذلك وتلقى پيير قبلات ، وقبل يد هيلين الجميلة عدة مرات . وبعد فترة تُركا وحدهما مرة أخرى .

وفكر پيير :

ـــ كل ذلك كان يجب أن يحدث ، ولا محالة عنه ، فمن غير المجدى أن نسأل ما إذا كان خيراً أو شراً . إنه خير لأنه محدد مقطوع به ، وقد تخلص المرء من عذاب الشك القديم .

وأمسك پيير يد خطيبته بصمت ، وهو ينظر إلى صدرها الجميل يعلو ويهبط .

قال بصوت مرتفع :

ـــ هيلين ..!

وصمت .

وفكر :

ـــ إن هناك شيئاً خاصاً يقال دائما فى مثل هذه الحالات .

لكنه لم يستطع أن يتذكر مايقوله الناس عندئذ . ونظر إلى وجهها . واقتربت منه ، وتضرج وجهها .

قالت مشيرة إلى نظاراته :

ـــ أوه ، اخلع هذه .. هذه ..

خلعها پيير ، وكان فى عينيه ، إلى جانب النظرة الغريبة التى تبدو فى العينين عندما تخلع عنها النظارات مباشرة ، نظرة أخرى خائفة ومتسائلة . كان يوشك أن ينحنى على يدها ويقبلها ، ولكنها بحركة سريعة من رأسها تكاد أن تكون عنيفة وحشية ، قاطعت شفتيه ، ولقيتهما بشفتيها . وصدم پيير وجهها ، بتعبيره المتغير المستثار على نحو كريه لا حسن فيه .

وفكر پيير :

ـــ فات الوقت الآن ، لقد وقعت الواقعة . ثم أننى أحبها .

وقال بالفرنسية :

ــ أحبك .

فقد تذكر ما يقال فى هذه اللحظات ، لكن هذه الكلمات كانت واهنة ضعيفة الوقع حتى استشعر الخجل من نفسه .

وتزوج بعد ستة أسابيع ، واستقر فى بيت الكونت بزوخوف الكبير الذى جدد أثاثه ، فى بطرسبرج ، وقد أصبح المالك السعيد ، كما كان الناس يقولون ، لزوجةٍ ذائعة الصيت بالجمال ، وملايين من المال .

الفصل الثالث

تلقى الأمير بولكونسكى الشيخ خطاباً من الأمير ڤاسيلى فى نوفمبر ١٨٠٥ يعلنه أنه سوف يزوره ، وابنه . كتب الأمير ڤاسيلى : « إننى على وشك القيام برحلة للتفتيش ، ولن ألقى بالاً ، بالطبع ، لأن أزيد رحلتى سبعين ميلا حتى آتى وأراك ، بهذه المناسبة ، يا ولى نعمتى المبجل . ويرافقنى ابنى أناتول ، فى طريقه إلى الجيش ، ومن ثم فاننى آمل أن تسمح له أن يعبر شخصياً عن احترامه العميق الذى يحسه بازائك ، مضارعاً فى ذلك أباه» .

فقالت الأميرة الصغيرة ، دون حيطة ، إذ سمعت الأخبار :

ــ يبدو أن لا حاجة للخروج بعارى ، فان الخطّاب يأتون إلينا من تلقاء أنفسهم .

فعبس الأمير نيكولاس ، لكنه لم يقل شيئاً .

وبعد أسبوعين من الخطاب ، وصل خدم الأمير ڤاسيلى ، سابقين عنه ، ووصل هو وابنه فى اليوم التالى

لم يكن بولكونسكى الشيخ يحسن الظن بخلق الأمير ڤاسيلى ، طيلة حياته ، وكان سوء ظنه به قد ازداد ، منذ ارتقى الأمير ڤاسيلى إلى مكانة عالية من سمو المنصب والتكريم ، فى عهد بول وألكسندر الجديد .

وكان يرى الآن ، مما أومأ إليه الخطاب وعرضت له الأميرة الصغيرة ، كيف كان اتجاه الريح ، فتغيرت عقيدته ، على سوئها ، إلى زراية ونفور وكراهة . كان يزفر من أنفه كلما جاء ذكره ، وفي يوم وصول الأمير ڤاسيلي ، كان الأمير بولكونسكي معتل المزاج ، غير راضٍ ، على نحو خاص ، وسواءً كان معتل المزاج لأن الأمير ڤاسيلي قادم ، أو كان اعتلال مزاجه يجعله يضيق بزيارة الأمير ڤاسيلي على نحو خاص ، فقد كان ، على أي الحالين ، معتل المزاج . وكان تيخون في الصباح قد نصح للمهندس المعماري ألا يذهب للأمير ليدلي إليه بتقريره .

قال تيخون يلفت نظر المعماري لوقع خطى الأمير :

— أتسمع كيف يمشي ؟ يطأ الأرض بكعبيه — نحن نعرف ما يعني ذلك ...

إلا أن الأمير ، في الساعة التاسعة ، خرج ليمشي في نزهته المألوفة ، مرتدياً جاكتته المصنوعة من المخمل ، وياقتها ، وقبعته المصنوعتين ، من فراء السمور . كانت السماء قد أثلجت طيلة اليوم السابق ، وكان الممر الفضي إلى محضن النبات قد كنس ، فقد كان الأمير معتاداً أن يسير في هذا الممر ، كانت آثار المكنسة ما تزال بادية للعيان في الثلج ، وقد تُركت مجرفة مغروزة في إحدى ضفاف الثلج الناعم التي تحف جانبي الطريق . وفتش الأمير على غرف المؤن ، وغرف الدقيق ، والمباني الخارجية ، عابساً صامتاً .

وسأل ناظره ، وهو رجل جليل يشاكل سيده مظهراً وسلوكاً ، وكان يرافقه في عودته للبيت :

— أيمكن أن تمر الزحافات ؟

— إن الثلج عميق ، يا صاحب السعادة ، وسوف آمر بكنس الشارع .

فأحنى الأمير رأسه ، ومضى إلى الشرفة . وقال الناظر لنفسه :

— الحمد لله ، مرت العاصفة ..!

وأضاف :

ـــ سيكون من الصعب الركوب ، يا صاحب السعادة . سمعت ياصاحب السعادة أن وزيراً يأتى لزيارة سعادتك .

فاستدار الأمير إلى الناظر ، وثبت عليه عينيه ، مقطباً

وقال فى صوته الخشن الحاد :

ـــ ماذا ؟ وزير ؟ أى وزير ؟ من أصدر الأوامر ؟ الطريق لايكنس من أجـل الأميرة ، بنتى ، بل يكنس من أجل وزير . . ! ليس عندى وزراء ..!

ـــ يا صاحب السعادة ، فـكرت ...

فصاح الأمير ، وكلماته تصدر عنه متزايدة السرعة ، متزايدة الإبهام :

ـــ فـكرت !. فـكرت..! أوغاد ..! سفلة..اسأعلمكم أن تفكروا..!

ورفع عصاه ، وأدارها ، وكان ليضرب بها ألباتيش ، الناظر ، لو أن هذا لم يتق الضربة ، بالغريزة .

وهتف الأمير بسرعة :

ـــ فـكرت ..! أوغاد ..!

وعلى أن ألباتيش ، وقد فزع لجسارته إذ اتقى الضربة ، اقبل إلى الأمير محنياً رأسه الصلعاء ، مستسلماً أمامه ، أو عساه لذلك السبب بعينه ، فإن لم يرفع الأمير عصاه ثانية ، وإن استمر يصيح :

ـــ أوغاد ..! أرموا الثلج ثانية على الطريق ..!

ومضى متعجلا إلى البيت .

وقفت الأميرة مارى ، ومدموازيل بورين ، قبل الغداء ، تنتظران الأمير وكانتا تعرفان أنه اليوم سىء الخلق ، كانت مدموازيل بورين وضاءة الوجه كما لو كان وجهها يقول : « لست أعرف شيئاً . إننى كالمعتاد ، دون تغير . » أما الأميرة مارى ، فشاحبة مفزعة ، مسبلة العينين ، وكان

أشق ما يؤودها احتماله ، معرفتها أنها ينبغى ، فى مثل هذه الحالات ، أن تسلك سلوك مدموازيل بورين، لكنها مع ذلك لاتستطيع .كانت تفكر :

— إذا بدا على أننى لا ألحظ شيئاً ، ظن أننى لا أتجاوب معه ، فاذا بدوت حزينة ، معتلة الخاطر ، قال ، كما فعل من قبل ، أننى فى حضيض الهم .

نظر الأمير إلى وجه ابنته المفزع ، وزفر من أنفه . وتمتم :

— حمقاء . . أو دمية . . !

وخطر له ، فيما يتعلق بالأميرة الصغيرة التى لم تكن فى غرفة الطعام :

— والأخرى ليست هنا . راحوا يروون عنى الحكايات . .

وسأل :

— أين الأميرة ؟ مختبئة ؟

فأجابت مدموازيل بورين بابتسامة مشرقة :

— ليست فى خير صحة ، فلن تنزل اليوم هذا طبيعى فى مثل حالتها .

وزام الأمير وهو يجلس :

— هم م م . . !

وبدا له أن صحفة ليست نظيفة كل النظافة فأشار إلى بقعة فيها ، وطوح بها . فالتقطها تيخون ، وأعطاها أحد الخدم . لم تكن الأميرة ، كما قيل ، معتلة الصحة ، بل غلبها خوف لا يقهر من الأمير ، فقررت عندما سمعت أنه محتد الطبع ، ألا تظهر إطلاقا .

وقالت لمدموازيل بورين :

— إننى أخشى على الطفل . والله أعلم ماذا عساه ينتج من الخوف .

كانت الأميرة الصغيرة تعيش فى « ليسى جورى » ، عامة ، فى خوف دائم ، وبشعور من النفور من الأمير الشيخ لم تكن تتبينه ، إذ كان الخوف هو الإحساس الأقوى بكثير . وكان الأمير يبادلها هذا النفور ،

وإن كان يغلبه احتقاره لها. فلما اعتادت الأميرة الصغيرة الحياة فى « ليسى جورى » مالت بحبها إلى مدموازيل بوريين ، وكانت تنفق معها أياماً بطولها ، وطلبت منها أن تنام فى غرفتها . وكانت تحدثها كثيراً عن الأمير والشيخ ، وتنحى عليه بالنقد .

قالت مدموازيل بوريين ، وهى تبسط فوطتهـا البيضاء بأصابعها الوردية :

— فسيكون لنا ؟ زوّار ، يا أميرى ؟

وقالت متسائلة :

— صاحب السعادة الأمير فاسيلى كوراجين ، وابنه ، كما فهمت ؟

قال الأمير بازدراء :

— هم م ..! صاحب السعادة جِرْوٌ صغير .. حصلت له على وظيفته . لماذا يأتى ابنه . لا أفهم . لعل الأميرة اليزابيث والأميرة مارى تعرفان . لست أعرف لماذا يأتى بابنه هنا . لست أريده .

ونظر إلى ابنته المتضرجة خجلا .

— أليست صحتك حسنة اليوم ؟ هيـه ؟ خائفة من « الوزير » كما قال ذلك الأبله ألباتيش هذا الصباح ؟

— لا يا أبى .

وعلى أن مدموازيل بوريين ، لم تكن موفقة إطلاقاً فى اختيارها لموضوع الحديث ، فلم تنقطع عن الكلام ، بل راحت تثرثر عن غرف المؤن ، وعن زهرة تفتقت حديثاً ، وبعد الحساء أنس الأمير وتطلقت سجاياه .

ومضى بعد العشاء يزور زوجة ابنه . كانت الأميرة الصغيرة جالسة إلى مائدة صغيرة تثرثر مع وصيفتها ماشا . فانخطف لونها إذ رأت حماها . كانت قد تغيرت كثيراً ، كانت الآن قد حال جمالها وذهبت حلاوتها .

وكانت وجنتاها قد تهضمتا ، وشفتها مرتفعة ، وعيناها مسبلتين .

قالت رداً عن سؤال الأمير عن صحتها :

— نعم ، أحس شيئاً من الهبوط .

— أتريدين شيئاً ؟

— لا ، شكراً يا أبي .

— طيب ، حسناً ، حسناً .

وبارح الغرفة ومضى إلى غرفة الانتظار ، حيث كان يقف ألباتيش محنيّ الرأس .

— هل أعيد الثلج إلى الطريق ؟

— نعم ياصاحب السعادة . اغفر لى بحق السماء ... كان ذلك من غبائى فقط .

فقاطعه الأمير :

— حسناً ، حسناً .

وضحك ضحكته غير الطبيعية ، ومد يده إلى ألباتيش ليقبلها ، ثم اتجه إلى غرفة مكتبه .

وصل الأمير ڤاسيلى فى ذلك المساء . وقابله الحوذية والخدم على الطريق ، وجروا زحافته ، بصيحات عالية . إلى أحد الجوانب على حافة الطريق ، وقد غطى ، عن عمد ، بالثلج .

وأُفردت للأمير ڤاسيلى وأناتول غرفتان منفصلتان .

وبعد أن خلع أناتول معطفه جلس ، وعقد ذراعيه ، أمام مائدةٍ ثبت نظره على جانب منها ، باسما غائب الذهن ، بعينيه الواسعتين الوسيمتين. كان يرى حياته سلسلة متصلة من التسلية يتحتم على شخصٍ ما ، أن يوفرها له . وكان يرى هذه الزيارة لرجل عجوز جهم سيء الطبع ، ووارثةٍ غنية قبيحة الشكل ، على هذا الضوء بعينه . كان يرى أن كل ذلك قد ينتهى إلى

شيء مسل طيب جداً . وفكر :

— ولماذا لا أتزوجها إذا كان عندها حقاً كل هذا المال ؟ ذلك لاضير فيه أبداً .

وحلق ذقنه ، وعطّر نفسه بالعناية والأناقة التي أصبحت عادةً عنده ، ودخل غرفة أبيه ، وقد شمخ برأسه الوسيم ، بمظهره الظافر المبتهج الذي أصبح من طبيعته . كان وصيفا الأمير ڤاسيلي منهمكيْن في إلباسه ثيابه ، ونظر حواليه بحيوية كبيرة ، وأومأ إلى ابنه مبتهجاً ، إذ دخل ، كما لو كان يقول :

— نعم ، هكذا أريدك أن تبدو .

سأله أناتول ، كما لو كان يواصل حديثاً تردد موضوعه كثيراً أثناء الرحلة :

— قل لي يا أبي ، بغض النظر عن الدعابة ، أهي بشعة جداً ؟

— كفى ..! ماهذا الهراء ..! حاول ، فوق كل شيء ، أن تكون حريصاً ، وأن تبدي الاحترام للأمير العجوز .

قال الأمير أناتول :

— إذا بدأ شحاناً ، فسأخرج . إنني لا أطيق هؤلاء الشيوخ ..! هيه ؟

— تذكرّ ، كل شيء يتوقف على هذا بالنسبة لك .

وفي هذه الأثناء ، لم يكن قد عُرف ، في غرف الخدم ، أن الأمير وابنه قد وصلا فحسب ، بل كان مظهرهما قد وُصف أدق الوصف . وكانت الأميرة ماري تجلس وحدها في غرفتها ، تعالج ، دون جدوى ، أن تسيطر على اهتياج مشاعرها .

قالت ، تنظر إلى نفسها في المرآة :

— لماذا كتبوا ؟ لماذا قالت لي ليز ؟ لا يمكن أن يحدث ذلك !

كيف سأدخل غرفة الاستقبال ؟ وحتى لو كان يروق لى ، فلن أكون طبيعية الآن معه .

كانت مجرد فكرة نظرة أبيها لها تملأها بالروع . وكانت الأميرة الصغيرة ، وماشا ، قد تلقتا من ماشا ، وصيفة الأميرة ، التقرير الضرورى عن مدى وسامة ابن الوزير ، بخديه الموردين وحاجبيه الأسودين ، وكيف كان الأب يجر ساقيه بمشقة يرقى السلالم ، بينما تبعه الابن يطير كالنسر ، يأخذ الدرجات ثلاثاً . فلما تلقت الأميرة الصغيرة ، ومدموازيل بوريين هذه الأنباء ، ذهبتا إلى غرفة الأميرة مارى التى كانت تسمع ثرثرة أصواتهما فى الممر .

قالت الأمير الصغيرة ، وهى تدخل تتأرجح ، وتغوص بثقل فى مقعد مريح :

— أنت تعرفين أنهم جاءوا يا مارى ؟

لم تكن تلبس الرداء الفضفاض الذى كانت ترتديه عادةً فى الصباح . بل كانت فى واحد من أحسن فساتينها . وكان شعرها مصففاً بعناية ، ووجهها فياضاً بالحيوية ، إن كانت الحيوية لا تخفى مع ذلك خطوطه المتهضمة الضاوية . وكانت تلبس كما اعتادت أن تفعل فى بطرسبرج . فأصبح يلفت النظر كيف حال جمالها . وكانت قد أضيفت إلى زينة مدام بوريين لمسة خفية أحالت وجهها الحلو الغض أكثر جاذبية .

فقالت :

— ماذا ! أتنوين أن تبقى كما أنت أيتها الأمير العزيزة ؟ سوف يعلنون أن السادة فى غرفة الاستقبال ، وسيكون علينا أن ننزل ، وأنت لم تتخذى أناقتك بالمرة ..!

نهضت الاميرة الصغيرة ، ورنت الجرس فى طلب الوصيفة ، وأخذت فى بهجة وعجلة ، تصمم وتنفذ مشروعاً لملبس الأميرة مارى وزينتها .

ونال من اعتبار الأميره ماری لنفسها أن يكون وصول خاطب ليدها مدعاة لاهتياج مشاعرها ، وزاد من ذلك أن زميلتيها لم تخطر لهما أدنى فكرة أن الأمر يمكن أن يكون على غير ذلك . فلو أنها أخبرتهما أنهما خجلة لنفسها ، ولهما معاً ، لنمّ ذلك عن انفعالها ، ولو رفضت عروضهما لزينتها لأطال ذلك من أمد معاتبتهما والحاحهما . تضرج وجهها ، ودكنت عيناها الجميلتان فبدتا معتمتين ، وظهرت على وجهها بقع حمراء واتخذ مظهر الاستشهاد الذى لا جاذبية فيه والذى كان يبدو عليه فى غالب الأحيان ، وأسلمت نفسها لمدموازيل بوريين ، وليز . كانت ها تان المرأتان ، باخلاص تام ، تحاولان أن تجملاها . كانت عاطلة عن الجمال حتى لم يكن بمقدور احداهما أن ترى فيها نداً لها ، فأخذا يزينانها باخلاص كامل ، وعندهما ذلك اليقين الحازم والساذج الذى تؤمن به النساء ، أن الملابس يمكن أن تجمل الوجه .

قالت ليز ، وهى تنظر نظرة جانبية إلى الأميرة مارى ، عن بُعد قليل :

— لا ، صحيح ، يا عزيزتى . ليس هذا الرداء جميلا . عندك رداء بُنى ، ارسلى فى طلبه . حقاً ..! أنت تعرفين أن مصير حياتك كلها قد يكون فى الميزان . لكن هذا الرداء فاتح جداً ، لايليق .. !

لم يكن الرداء ، بل وجه الأميرة مارى وقدها كلها ، هو العاطل من الجمال ولكن لا الأميرة الصغيرة ولا مدموازيل بوريين كانتا تحسان ذلك ، كانا ماتزالان تعتقدان أنه إذا وضع شريط أزرق فى شعرها ، ومشط الشعر ، ونسق الوشاح الأزرق أخفض قليلا على الرداء البنى المفضل ، وهلم جرا ، فكل شىء على مايرام . ونسيا أن الوجه المفزع ، والقامة ، لم يكونا ليتغيرا وأنهما مهما غيرا من تنسيق ووضع هذا الوجه فسيظل مع ذلك مثيراً للرثاء ، خلوا من الجمال . وبعد مرتين أو ثلاث من التغيير ، خضعت لهما

الأميرة مارى بوداعة ، كما خضعت عندما نسق شعرها على قمة رأسها ، وهى طريقة غيرت وأفسدت مظهرها تماماً ، ولبست الفستان البنى والوشاح فاتح الزرقة . وسارت الأميرة الصغيرة مرتين حولها ، تسوى تارة إحدى طيات فستانها بيدها الصغيرة وتنسق الوشاح تارة ، وتنظر إليها برأس مائلة إلى جانب ثم إلى الجانب الآخر .

ثم قالت بعزم ، وهى تعتصر يديها :

— لا ، لاينفع . لا يا مارى ، صحيح ، هذا الفستان لايناسبك . إنى افضلك فى فستانك الرمادى الصغير الذى تلبسينه كل يوم . والآن أرجوك من أجلى .

ونادت الوصيفة :

— كاتى ، هاتى للأميرة فستانها الرمادى .

وأضافت ، مبتسمة وهى تشعر سلفاً بسرور الفنان :

— وسوف ترين يا مدموازيل بوريين كيف سأنسقه .

إلا أنه لما أحضرت كاتى الفستان المطلوب ، بقيت الأميرة مارى جالسة بلا حراك أمام المرأة ، تنظر إلى وجهها . ورأت فى المرآة عينيها ممتلئتين بالدموع ، وفمها يرتعش ، على وشك الاجهاش بالبكاء .

قالت مدموازيل بوريين :

— هيا أيتها الأميرة العزيزة : مجهود صغير آخر فقط .

وأخذت الأميرة الصغيرة الفستان من الوصيفة ، وأقبلت على الأميرة مارى قائلة :

— حسناً . سوف ننسق الآن شيئاً بسيطاً جداً ومناسباً .

وامتزجت الأصوات الثلاثة ، صوتها وصوت مدموازيل بوريين ، وكاتى التى كانت تضحك من شىء ما ، فى صوت بهيج كزقزقة العصافير .

قالت الأميرة مارى :

— لا ، دعونى وشأنى .

وكان فى صوتها من الجد والحزن ، حتى صمتت شقشقة العصافير على الفور . ونظرن إلى العينين الواسعتين الجميلتين التأملتين، زاخرتين بالدموع والأفكار ، تحدقان إليهن بتضرع ووميض ساطع ، وفهمن أن لا جدوى من الإلحاح ، بل أن ذلك فيه قسوة .

قالت الأميرة الصغيرة :

— غيّرى من تصفيف شعرك على الأقل .

ومضت ، مستديرة بعتب إلى مدموازيل بوريين :

— ألم أقل لك . أن وجه مارى لايناسبه مثل هذا التصفيف بالمرة . بالمرة ..! غيريه . أرجوك .

فأجابها صوتٌ يصطرع مع الدموع :

— دعينى وشأنى ، أرجوك دعينى وشأنى ! فالأمر كله سواءٌ عندى .

واضطرت مدموازيل بوريين ، والأميرة الصغيرة ، أن تعترفا لأنفسهما أن الأميرة مارى كانت تبدو عاطلة جداً عن كل جمال ، فى هذا المظهر ، وأسوأ مظهراً من المألوف ، ولكن الوقت كان قد فات . كانت تنظر إليهما بتعبير تعرفه كلتاهما ، تعبير مفكـّر حزين . لم يكن هذا التعبير عند الأميرة مارى يخيفهما ، فلم تكن تلهم أحداً بالخوف أبداً ، لكنهما كانتا تعرفان أنه إذا بدا على وجهها ، غدت صموتة خرساء ، ولم يكن ليزحزحها شيء عما استقر عليه عزمها .

قالت ليز :

— ستغيرينه ، أليس كذلك ؟

فلما لم تجب الأميرة مارى ، غادرت الغرفة .

بقيت الأميرة مارى وحدها . لم تلبّ رجاء ليز ، فلم تترك شعرها على حاله فحسب ، بل هى لم تنظر إلى مرآتها . وتركت ذراعيها تسقطان بلا

حول إلى جانبها ، جلست مسبلة العينين ، تمعن الفكر . زوجٌ ، رجل ، كائن قوى مسيطر غريب الجاذبية ، قام فى خيالها ، وحملها إلى عالم سعيد مغاير ، له وحده ، يختلف كل الاختلاف . وتصورت طفلاً — طفلها — كما رأته البارحة بين ذراعى بنت مربيتها ، تصورته على صدرها هى ، والزوج يقف إلى جنب ، ويحدق إليها بحنوّ ، وإلى الطفل. وفكّرت :

— لا .. إن هذا مستحيل . إننى قبيحة الشكل جداً .

جاء صوت الخادمة من الباب :

— تفضلى على الشاى . سيخرج الأمير بعد لحظة .

فاستنهضت نفسها ، وروّعها وهالها ما كانت تفكر فيه ، ومضت ، قبل أن تنزل ، إلى الغرفة التى كانت الأيقونات معلقة بها ، وثبتت عينيها بالوجه الداكن فى أيقونة كبيرة للمخلّص ، يضيئها قنديل . ووقفت أمامها مطوية الذراعين بضع لحظات . كان يملك روحها شكٌ مؤلم . أيمكن أن تكون لها فرحة الحب ، حبٌ دنيوىّ لرجل ؟ كانت الأميرة مارى ، فى تفكيرها عن الزواج ، تحلم بالسعادة والأطفال، لكن توقها الأعنف الأعمق استخفاءً إنما كان توقها للحب الدنيوى . وكلما جهدت أن تخفى عن الآخرين هذا الشعور ، بل عن نفسها أيضاً ، نما وازداد قوة .

قالت :

— أوه يا إلهى . كيف أخنق فى قلبى هذه الغوايات من الشيطان ؟ كيف أهجر إلى الأبد هذه الخيالات الشريرة ، حتى أصنع إرادتك بسلام ؟

وما أن تساءلت بهذا السؤال حتى أعطاها الله إجابةً من قلبها نفسه:

— لا تشتهى شيئاً لنفسك ، لا تبحثى عن شىء ، دعى عنك القلق والحسد . إن مستقبل الانسان، ومصيرك أنت ، يجب أن يبقى خافياً عليك

فلتعيشى حياتك مستعدةً لكل شيء . وإذا كانت مشيئة الله أن يمتحنك بواجبات الزواج ، فلتستعدى لتحقيق مشيئته .

وتنهدت الأميرة مارى ، وهذه الفكرة تعزّيها وتهدئها ، ومع ذلك فقد كان لها أملٌ أن يتحقق نزوعها الدنيوى المحظور . وبعد أن رسمت علامة الصليب نزلت ، لاتفكر فى ردائها ، ولا فى شعرها ، ولا فى كيف ستدخل الغرفة ، ولا فيم سوف تقول . ففيم أهمية ذلك كله بإزاء مشيئة الله ، وهو الذى لايمكن إلا بإرادته أن تسقط شعرة من رأس إنسان ..؟

الفصل الرابع

كان الأمير ڤاسيلى وابنه ، عندما نزلت الأميرة مارى ، فى غرفة الاستقبال ، يتحدثان إلى الأميرة الصغيرة ومعه مدموازيل بوريين . وعندما دخلت ، بخطوها الثقيل ، تطأ الأرض بكعبيها ، نهض السيدان ، ومدموازيل بوريين . وقالت الأميرة الصغيرة بالفرنسية ، تؤمىء إليها :

— ها هى ذى مارى ..!

رأتهم الأميرة مارى جميعاً ، رأتهم بالتفصيل الدقيق . رأت وجه الأمير ڤاسيلى ، وقد اكتسى مسحة الجد ، لحظة ، عندما رآها ، ثم ابتسم للتو ، والأميرة الصغيرة ترقب بفضول ما تركته «مارى» من أثر على الزائرين . ورأت مدموازيل بوريين ، بوجهها الحلو وشريط شعرها ، ونظرتها التى يتبدى فيها انفعال غير مألوف ، مثبتة عليه ، هو . لكنه ، هو ، لم تستطع أن تراه ، وإنما رأت شيئاً كبيراً ، باهراً ، ووسيما يتحرك إليها إذ دخلت الغرفة . وأقبل الأمير ڤاسيلى أولا ، وقبلت الجبهة الصلعاء التى انحنت على يدها ، وأجابت أسئلته قائلة أنها ، بالعكس ، تتذكره حق التذكر . ثم أقبل أناتول إليها . لم تكن تستطيع أن تراه بعد . وإنما أحست يداً ناعمة تمسك بيدها مسكة حازمة ، ومست شفتيها جبهةً بيضاء فوقها شعر جميل كستنائى

يفوح منه شذى الدهان وعند ما رفعت إليه بصرها بُهتت لجماله ، كان أناتول يقف ، إبهامه اليمنى تحت زرار من أزرار حلّته العسكرية ، وصدره مفرود منبسط ، وظهره مشدود ،وهو يهتز اهتزازاً هيناً على إحدى قدميه ، محنيّ الرأس قليلا ، ينظر بوجه وضيء إلى الأميرة دون أن يتكلم ، ولا يفكر فيها ، كما هو واضح ، على الاطلاق . لم يكن أناتول حاضر البديهة ولا مقبلا على الحديث فصيحاً به ، لكن كان يمتاز بخصلة ما أثمنها فى المجتمعات ، أن يحتفظ برباطة جأشه وهدوئه وامتلاكه لزمام أمره . فإذا بقى رجل تُعوزه الثقة بالنفس عييّا فى أول لقاء ، ووشى به حسّه بأن مثل هذا الصمت لا يليق ، ولهفته أن يقول شيئا ، وكان الأثر الذى يخلّفه سيئا . أما أناتول فقد كان عييّا ، وبقى يهز قدمه ، ويتفحص شعر الأميرة باسما . وكان واضحا أن باستطاعته أن يبقى على هذا الصمت أمداً طويلا جداً . كان يبدو كما لو كان يقول :

— لو أن أحداً يرى هذا الصمت مما لا يليق ، فليتكلم . أما أنا فلا أريد .

إلا أن أناتول ، فى سلوكه مع النساء ، كانت له طريقة تثير فيهن الفضول ، والرهبة ، بل الحب — حسّ أنوفٌ متشامخ بتفوّقه ، كما لو كان يقول لهن :

— إننى أعرفكن ، أعرفكن ، ولكن فيم أهتم بكن ؟.. سوف يسعدكن ذلك جداً ، بالطبع .

وعساه لم يفكر فى ذلك حقاً عند ما يلتقى بالنساء — بل هو لم يكن يفكر فيه على الأرجح ، إذ كان قليلا ما يفكر ، عادة ، لكن نظراته وطريقته كانت تترك فيهن هذا الأثر . وأحست الأميرة ذاك ، واستدارت إلى أبيه ، كما لو كانت تبغى أن تشعره بأنها لا تجسر حتى أن تنتظر منه اهتماما بها . كان الحديث يدور فى الموضوعات العامة ، بكثير من

الحيوية ، بفضل صوت الأميرة ليز ، والشفة الصغيرة المكسوّة بالزغب إذ تفترّ مرتفعة عن أسنانها البيضاء . كانت تلق الأمير ڤاسيلى بتلك الطريقة المُلاعبة التي يستخدمها الناس غالباً ، عندما يكونون محبين للثرثرة ، متوفزين بالنشاط ، وهى طريقة تقوم على افتراض قيام دعابات شبه خاصة حميمة ، طويلة العهد ، وذكريات مسلية ، بينهم والناس الذين يتوجهون لهم بالحديث — على أن شيئاً من ذلك لا يقوم فى الواقع ، وشيئاً من ذلك لم يكن قائماً فى هذه الحالة بالذات . وساوقها الأمير ڤاسيلى ، عن طواعية ، فى لهجتها تلك ، واجتذبت الأميرة الصغيرة أناتول أيضاً ، ولم تكن تكاد أن تعرفه إطلاقاً ، إلى هذه الذكريات المسلية عن أشياء لم تقع قط . وشاركتهم مدموازيل بورين كذلك ، بل أحست الأميرة مارى بنفسها تشارك ، على نحو لطيف ، فى هذه الذكريات البهيجة .

قالت الأميرة الصغيرة ، بالفرنسية طبعاً ، للأمير ڤاسيلى :

— سيكون لنا على الأقل هنا حظ أن نأنس بك وحدنا ، أيها الأمير العزيز . وليس الأمر كما يحدث فى حفلات آنيت ، حيث كنت دائماً تفرّ منا ، هل تتذكر آنيت هذه العزيزة ..!

— آه ، ولكنك لن تتكلمى معى فى السياسة كما تفعل آنيت ..!

— ومائدة الشاى الصغيرة الخاصة بنا ؟

— آه ، نعم ..!

سألت الأميرة الصغيرة أناتول :

— لماذا حدث أنك لم تكن أبداً تأتى إلى بيت آنيت ؟

ثم قالت ، وهى ترمقه بنظرة خجلى :

— آه ، إننى أعرف ، إننى أعرف . قال لى أخوك هيپوليت عن حكاياتك .

وهزت له بنانها :

— أوه ..! بل سمعت حتى عن أعمالك فى باريس ..!

فاستدار الأمير ڤاسيلى لابنه ، وأمسك بذراع الأميرة الصغيرة كما لو كانت لتفر لو أنه لم يستطع أن يمسك بها وقال :

— ولم يقل لكِ هيپوليت ؟ لم يقل لك كيف كان يشتاق إلى الأميرة العزيزة ، وكيف أرته طريق الباب ؟

وأضاف ملتفتاً إلى الأميرة مارى :

— أوه، إنها جوهرة بين النساء ، أيتها الأميرة .

وعند ما جاء ذكر باريس ، انتهزت مدموازيل بوريين ، من جانبها ، الفرصة السانحة لتلحق بالتيار العام للذكريات .

وأتاحت لنفسها أن تسأل ما إذا كان قد انقضى زمن طويل منذ بارح أناتول باريس ، وما رأيه فى تلك المدينة . وأجاب أناتول ، عن طواعية جداً، سؤال الفرنسية ، وأخذ يحدثها ، وهو ينظر إليها باسماً ، عن وطنها. كان أناتول ، عند مارأى بوريين الحلوة الصغيرة ، قد انتهى إلى أنه لن يجد « ليسى جورى » مدعاة للضجر . وفكّر وهو يتفحصها :

— ليست سيئة بالمرة ..! ليست سيئة أبداً هذه الآنسة المُرافقة الصغيرة ..! أرجو أن تأتى بها معها عند ما نتزوج ، فالصغيرة لطيفة ..!

كان الأمير الشيخ يرتدى ملابسه ، فى غرفة مكتبه ، على مهل ، عابساً متأملاً فيم عليه أن يفعل . كان يضيق بقدم هذين الزائرين . وكان يتذمّر متشكياً ، لنفسه :

— ما الأمير ڤاسيلى وابنه هذا ، عندى ؟ الأمير ڤاسيلى مدعٍ تافه ضحل ، وابنه هذا لاشك نموذج رائع ..!

كان ما يغضبه أن مقدم هذين الزائرين أيقظ فى ذهنه مشكلة معلقة عالج دائماً أن يكاتم بها ، مشكلة كان دائماً يخادع نفسه بشأنها . كانت المشكلة ما إذا كان سوف يطيق أبداً أن يفترق عن ابنته ، ويعطيها زوجاً .

لم يسأل الأمير نفسه هذه المسألة مباشرة ، أبداً ، إذ كان يعرف سلفاً أنّ عليه أن يعدل فى إجابته عنها ، ولم تكن العدالة لتصطدم بمشاعره فحسب ، بل هى تصطدم بإمكان الحياة نفسها. كانت الحياة من غير الأميرة مارى شيئاً لا يمكن التفكير فيه ، على هوْن ما كان يبدو أنه يقدّر الأميرة . وكان يفكّر : « ولمَ تتزوج ؟ حتى تشقى ، على التأكيد . ها هى ذي ليز ، زوجةً لأندرو — ولا يمكن أن نجد زوجاً يفضله فى هذه الأيام ، فيما يظن المرء — ومع ذلك أراضية هى بقسمتها ؟ ومن ذا الذى يتزوج مارى عن حب ؟ عاطلة من الجمال ، لا رشاقة فيها ..! سوف يأخذونها ، لثروتها ، وعائلتها ، أليس ثمة نساء يعشن غير متزوجات ، بل وأسعد بذلك حالاً ؟»

ذلك ما كان يفكّر فيه الأمير بولكونسكى وهو يرتدى ملابسه ، على أن السؤال الذى كان يرجئه دائماً ، كان يتطلب منه ، على الفور ، إجابة . فالأمير فاسيلى قد أتى بابنه معه ، بنيّة الخطبة الواضحة ، وسوف يطلب ردًّا اليوم أو غداً ، على الأرجح . لم يكن نسبه أو مكانته فى المجتمع من السوء بحال .

قال الأمير لنفسه :

— حسناً ، ليس عندى ما أعترض به . لكنه يجب أن يكون جديراً بها . وهذا ما سوف نرى .

وأضاف بصوت مرتفع :

— هذا ما سوف نرى . ! هذا ما سوف نرى ..!

دخل غرفة الاستقبال بخطاه اليقظة النشطة المألوفة ، ورمق الحاضرين بسرعة . ولاحظ التغيير فى ملبس الأميرة الصغيرة ، والشريط فى شعر مدموازيل بوريين ، وتصفيف شعر الأميرة مارى الذى لا يليق بها ، وابتسامات مدموازيل بوريين وأناتول معاً ، ووحشة بنته فى وسط مجرى الأحاديث .

— إنها لا تستحي ، وهو يتجاهلها ..!

ومضى مباشرة إلى الأمير ڤاسيلي :

— حسناً ..! كيف أنت ، كيف أنت ؟ يسرني أن أراك !

فبدأ الأمير ڤاسيلي يقول بلهجته السريعة المألوفة الممتدة بنفسها :

— إن الصداقة تسخر من البُعد . هـذا ابني الثاني . تفضل بأن تكون صديقاً ومحباً له .

فمسح الأمير بولكونسكي أناتول ببصره ،

وقال :

— فتى حسن ..! فتى حسن ..! حسنا . تعال وقبّلني .

وقدّم له خدّه .

قبّل أناتول الرجل الشيخ ، ونظر إليه بفضول ، ورباطة جأش كاملة ، في انتظار ما قال له أبوه أن ينتظر من شذوذ في السلوك .

جلس الأمير بولكونسكي في مكانه المألوف ، في ركن الأريكة ، وجذب مقعداً للأمير ڤاسيلي فأومأ إليه ، وبدأ يسأله عن الأخبار وشئون السياسة . وكان يبدو أنه يصغي بانتباه إلى ما يقول الأمير ڤاسيلي ، وإن ظل يرمق الأميرة ماري .

قال مردداً آخر كلمات الأمير ڤاسيلي :

— فهم يكتبون من بوتسدام ، من الآن ؟

ثم نهض فجأة ، وأقبل على ابنته ، وقال :

— أمن أجل الزوّار زوّقت نفسك بهذا الشكل ؟ جميل ، جميل جداً ..! صففتِ شعرك بهذه الطريقة الجديدة من أجل الزوار . وأمام الزوار أقول لكِ أن عليكِ في المستقبل ألا تجسرين على تغيير طريقتك إلا بإذني .

فتدخلت الأميرة الصغيرة ، متضرجة الوجه :

— ذلك خطأي أنا يا أبي .

قال الأمير بولكونسكي ، منحنياً لزوجة ابنه :

— أنتِ لك أن تفعلي ما يروقك . أما هي فلا حاجة بها أن تجعل من نفسها مسخاً ، فيكفيها ما هي عليه من عطل عن الجمال

وجلس ثانية ، دون أن يلقي بالاً بعد إلى ابنته ، وقد راحت تبكي .

قال الأمير ڤاسيلي :

— بالعكس . هذا التصفيف يناسب الأميرة جداً .

قال الأمير بولكونسكي ملتفتاً إلى أناتول :

— والآن أنت ، أيها الأمير الشاب ، ما اسمك ؟ تعال هنا ، ولنتكلم ونعرف أحدنا الآخر .

فخطر أناتول وهو يجلس ، بابتسامة ، بجانب الامير الشيخ :

— هيّ ذي الحكاية تصبح ممتعة ..!

وسأله الشيخ ، وهو يمعن تفحصه عن كثب :

— حسناً يا بني العزيز ، سمعت أنك تعلمت في الخارج ، ولم يعلمك عرّاف الكنيسة أن تقرأ وتكتب ، شأن أبيك وشأن أبي . فقل لي إذن ، يا بني العزيز ، أتخدم في حرس الفرسان ؟

قال الأمير أناتول ، وهو يوشك ألاّ يطيق المكاتمة بالضحك :

— لا ، نُقلت إلى الجبهة .

— آه ..! هـذا شيء حسن . فأنت يا بني العزيز تريد أن تخدم القيصر والوطن ؟ إن الحرب قائمة ، ومثلك من الشبان يجب أن يؤدوا واجبهم . حسناً ، أذهبتَ أنت للجبهة ؟

فقال أناتول :

— لا أيها الأمير ، إن فرقتنا ذهبت إلى الجبهة ، لكني ملحق بـ ..

والتفت إلى أبيه ضاحكاً :

— بابا .. ملحقٌ بمَ أنا ؟

فضحك الأمير بولكونسكى :

— جندىّ عظيم ، عظيم ! « ملحق بمَ أنا » ها ها ها !

فزادت ضحكة أناتول ارتفاعا .

وعبس الأمير بولكونسكى فجأة :

وقال لأناتول :

— تفضل بالخروج .

فالتفت أناتول مبتسماً إلى السيدات .

قال الأمير الشيخ للأمير ڤاسيلى :

— ومن ثمّ فقد أرسلته يتعلم فى الخارج أيها الأمير ڤاسيلى . أليس كذلك ؟

— قمت بأحسن ما يمكن من أجله . وأستطيع أن أؤكد لك أن التعليم هناك أحسن من عندنا بكثير .

— نعم . تغير كل شىء فى هذه الأيام . تغير كل شىء . الوَلد مدهش. مدهش ..! حسناً ، تعال معى الآن .

وأخذ ذراع الأمير ڤاسيلى ، وذهب به إلى غرفة مكتبه . وما أن انفردا ، حتى قال الأمير ڤاسيلى للأمير الشيخ بآماله ورغباته .

قال الأمير الشيخ مغضباً :

— حسناً ، أتظننى سأمنعها ، أنى لا أستطيع الافتراق عنها ؟ يا لها من فكرة !.. إننى مستعد لذلك من الغد ..! ولكن دعنى أخبرك أنني أريد أن أحسن معرفة زوج بنتى . أنت تعرف مبادئى — كل شىء فى وضح النهار ..! سأسألها غداً فى حضورك ، فإذا كانت موافقة استطاع البقاء هنا . يستطيع أن يبقى ، وسأرى .

وزفر الأمير الشيخ :

— فلتزوج ، فذلك عندى سواء . !

كان يصيح بنفس الصوت الثاقب الذى صاح به عند ما افترق عن ابنه

قال الأمير ڤاسيلى بلهجة الرجل الحاذق الذى أيقن بعُقم المداورة والدهاء مع شخص على مثل هذه الحدة فى البصيرة :

— سأقولها لك بصراحة . فأنت تعرف ، أنت تستشف الناس إلى أعماقهم . ليس أناتول بعبقرى ، لكنه ولد أمين طيب القلب ، وابنٌ أو قريبٌ يحفظ القربى .

— حسناً ، حسناً ، سنرى ..!

أحس النساء الثلاث فى بيت الأمير بولكونسكى ، لمرأى أناتول ، أن حياتهن لم تكن حتى ذلك الحين حياة حقيقية ، كما يحدث دائماً عندما تحيا النساء حياة الوحدة لفترة من الزمن ، دون رفقة الرجال . وزادت قوى التفكير ، والاحساس ، والملاحظة عندهن ، عشر مرات ، وحياتهن التى كانت تبدو أنها انقضت فى الظلمة ، أضاءها فجأة سطوع جديد زاخر بالدلالة والمعنى .

ولم تعد الأميرة مارى تحس إطلاقاً بمظهر وجهها أو تصفيف شعرها . كان الوجه الوسيم الطلق للرجل الذى عساه يصبح زوجها ، يستغرق كل انتباهها . كان يبدو لها ودوداً ، شجاعاً ، مستقر العزم ، ينمّ عن رجولة ، وكرم خلق . كانت تحس نفسها موفقة بذلك . وكانت تقوم فى خيالها ، على الدوام ، آلاف من الأحلام عن حياة عائلية مقبلة ، فكانت تطرد هذه الأحلام وتحاول أن تخفيها .

وكانت الأميرة تفكر :

— ألست باردة معه أكثر مما ينبغى؟ إنى أحاول أن أكون متحفظة لكننى فى أعماق روحى أحس ، من الآن ، أننى أوثق قربى منه ، مما ينبغى . لكنه لا يستطيع أن يعرف ذلك ، وقد يتصور أننى لا أميل إليه .

وحاولت الأميرة مارى ، على فشلها فى أن تستطيع ذاك ، أن تكون ودودة إلى ضيفها الجديد .

كان أناتول يفكر :

— يا للبنت المسكينة . إنها دميمة جداً ..!

وكانت مدموازيل بوريين ، أيضاً ، قد استثار انفعالها الشديد مقدمُ أناتول ، فكانت تفكر بأسلوب آخر . لم تكن بالطبع تنوى أن تضع حياتها فى خدمة الأمير بولكونسكى ، والقراءة له بصوت مرتفع ، ومصادقة الأميرة مارى — وهى المرأة الوسيمة الصبيّة التى لا تشغل مركزاً ما ، ولا أقارب ، بل لاوطن لها. كانت مدموازيل بوريين، منذ زمن طويل، تنتظر أميراً روسياً يستطيع بنظرة واحدة أن يقدر تفوقها على الأميرات الروسيات العاطلات من الجمال والرشاقة اللائى يسئن ارتداء ملابسهن ، فيقع فى حبها ، ويهرب معها ، وها هو ذا الأمير الروسى أخيراً . كانت مدموازيل بوريين تعرف حكاية سمعتها من عمتها ، وإن كانت الحكاية تنتهى، عندها ، بطريقتها الخاصة ، وكانت تحب أن ترددها لنفسها . كانت حكاية عن بنت قد وقعت فى الغواية ، وظهرت لها أمها التعسة ، فى الرؤيا ، تعتب عليها استسلامها لرجل دون زواج . وكانت مدموازيل بوريين كثيراً ما تمس قلبها هذه الحكاية ، حتى تبكى ، وهى تقص هذه الحكاية ، فى الخيال ، له ، هو ، ذلك الذى أغواها هى . وعندئذ يهرب معها ، وتظهر أمها التعسة ، فى الرؤيا ، ويتزوجها . كذلك كان المستقبل يتشكل فى ذهنها ، فى نفس اللحظة التى كانت تحدثه فيها عن باريس . لم يكن التدبر والدهاء يحدوها — لم تكن تتأمل ، ولا لحظة واحدة ، ما هى فاعلة — بل كان ذلك كله مألوفا عندها من زمن بعيد ، والآن وقد ظهر أناتول ، تجمّع ذلك حوله ، فكانت تروغ أن تسترضيه ، وتعالج ذلك ، بكل ما فى وسعها أن تفعل..

أما الأميرة الصغيرة ، فكانت كحصان حرب عجوز يسمع النفير ،

فاستعدت لجرية الغزل القديمة ، دون تفكير وقد ذهلت تماما عن حالتها ، ودون أى حافز من الأثرة ، ودون صراع ، بل لمجرد المراح الساذج الخفيف القلب .

وعلى أن أناتول كان فى رفقة النساء يتخذ عادة دور رجل قد أضجرته ملاحقة النساء ، فقد دغدغ غروره ومسح عليه مرأى سيطرته على هاته النساء الثلاث . فضلا عن أنه قد أخذ يشعر بازاء مدموازيل بوريين الحلوة المستفزة ، بذلك الشعور الحيوانى المشبوب الملتهب الذى كان يغلبه على أمره أحيانا ، على نحو فجائى خارق ، ويحثه على إتيان أبعد الأفعال عن الحيطة وأشدها غلظة وفظاظة .

وذهبوا جميعا بعد الشاى إلى غرفة الجلوس ، وطُلب من الأميرة مارى أن تعزف على البيانو . وجاء أناتول ، ضاحكا مرحا ، فاستند إلى مرفقيه يواجهها ، بجانب مدموازيل بوريين . وأحست الأميرة مارى نظرته بانفعال مؤلم بهيج . وحملتها السوناتا الأثيرة عندها إلى عالم ملؤه الشاعرية والقربى الحميمة ، وكانت النظرة التى تحسها عليها تضفى على هذا العالم مزيداً من الشعر . على أن نظرة أناتول وإن كانت تقع عليها إنما كانت تومىء لا إليها ، بل إلى حركات قدم مدموازيل بوريين الصغيرة التى كانت عندئذ تمس قدمه تحت البيانو . كانت مدموازيل بوريين تنظر أيضا إلى الأميرة مارى ، أما فى عينيها البديعتين فقد كانت تبدو نظرة من الفرح والأمل المتوجس خيفة ، نظرة كانت جديدة كذلك على الأميرة .

خطر للأميرة مارى :

ــ ما أشد حبها لى ..! ما أسعدنى الآن ، وكم يسعدنى أن أكون مع مثل هذه الصديقة ومثل هذا الزوج ..! زوج ..؟ أيمكن ذلك ؟

ولم تجسر على النظر إلى وجهه ، وإن كانت ما تزال تحس عينيه تحدقان إليها .

وفى المساء، بعد العشاء . عند ما كان الجميع يهمون بالايواء إلى الفراش، قبل أناتول يد الأميرة مارى . ولم تدر كيف واتتها الشجاعة، لكنها نظرت مباشرة إلى وجهه الوسيم إذ دنا من عينيها القصيرتى النظر، والتفت عن الأميرة مارى، ومضى فقبّل يد مدموازيل بوريين، لم يكن ذلك من الأصول، ولكن ما أشد البساطة والثقة التى كان يفعل بها كل شىء ..! تضرج وجه مدموازيل بوريين، ورمقت الأميرة بنظرة فزعة .

ففكرت الأميرة :

ـــ يالها من رقة ذوق ..! أيمكن أن تظن أميلى (مدموازيل بوريين) أننى قد أغار منها ؟ ولا أقدر حبها الخالص وولاءها لى ؟

وأقبلت عليها فقبّلتها بحرارة .

ومضى أناتول ليقبّل يد الأميرة الصغيرة . فقالت :

ـــ لا ، لا ، لا ..! عندما يكتب أبوك ليقول أنك تُحسن السلوك ، سأعطيك يدى لتقبلها . وليس قبل ذلك ..!

وبارحت الغرفة ، وهى ترفع اصبعها محذرة ، باسمة

الفصل الخامس

تفرقوا جميعاً ، وفيما عدا أناتول الذى استغرق فى النوم ، بمجرد أن أوى إلى الفراش ، ظلوا يقظين فترة طويلة فى ليلتهم تلك .

كانت الأميرة مارى تفكر :

ـــ أيصبح حقاً زوجى .؟ ذلك الغريب ، الذى ما أشد ودّه وطيبته ، نعم طيبته ، هذا هو الشىء الأساسىّ .

وجاءها الخوف ، الخوف الذى نادراً ما استشعرته . كانت تخاف أن تنظر حواليها ، فقد كان يخال لها أن هناك من يقف وراء الستارة ، فى الركن المظلم . وأنه كان ـــ هو ـــ الشيطان . وأنه ـــ هو ـــ كان أيضاً

ذلك الرجل بجبينه الأبيض ، وحاجبيه السوداوين ، وشفتيه الحمراوين .

ودقّت الجرس لوصيفتها ، وطلبت منها أن تنام فى غرفتها .

وقضت مدموازيل بورين وقتاً طويلا ، تذرع بيت النباتات الزجاجى ، جيئة وذهوباً ، تنتظر شخصا ما ، فى غير طائل ، وتبتسم تارة لشخص ما ، وتارةً تدفع نفسها للبكاء ، من أثر كلمات أمها التعسة التى تلومها على سقطتها .

وتذمرت الأميرة الصغيرة ، تتشكّى إلى وصيفتها من سوء هندام سريرها . فقد أعياها أن تنام على وجهها ، وعلى جنبها سواءً . وكان كل وضع لها يقضّها ولا راحة فيه ، وكان حملها يؤودها الآن أكثر مايؤود ، إذ قد ابتعث حضور أناتول ذكرى الوقت الذى لم تكن فيه على هذه الحال ، عندما كان كل شىء خفيفاً مرحا . فجلستْ فى مقعد مريح ، وهى ترتدى سترة الليل وقلنسوته ، وجاءت كاتى ، نعسانة مشعثة الهندام ، فضربت حشية السرير المتخذة من الريش ، وقلّبتها للمرة الثالثة ، وهى تتمتم لنفسها .

ورددت الأميرة الصغيرة :

— قلت لكِ كلها نتوءات وحفر ..! يسرنى حقا أن أنام ، فليس ذلك إذن خطأى ..!

وارتعش صوتها كصوت طفل يوشك أن يبكى .

ولم ينم الأمير الشيخ كذلك . وسمعه تيخون ، وهو نصف نائم ، يذرع الغرفة بغضب ، ويزفر . كان الأمير الشيخ يحس إحساس من لحقته المهانة ، عن طريق بنته . وكانت المهانة أشد وقعا لأنها لم تكن تتعلق به ، بل بشخص آخر ، بنته التى يحبها أكثر مما يحب نفسه . وظل يردد لنفسه أنه سوف يفكر فى الأمر جميعا ، ويقرر ما هو صواب ، وكيف ينبغى له أن يفعل ، ولكنه عوضا من ذلك ، كان يؤرث بنفسه حدة اهتياجه ، باطّراد :

— أول رجل يأتى ، فتنسى أباها ، وتنسى كل شىء ، وتجرى إلى

أعلى ، فتزوّق شعرها وتبصبص بذيلها ، وتفقد مِلاك نفسها ..! فهى مسرورة بأن تطوّح بأبيها بعيداً..! وكانت تعرف أننى سوف ألحظ ذلك. أف ..! أف ..! أف..! ألا أرى أنا أن ذلك الأحمق لا يقع بصره إلا على بوريين — علىّ أن أتخلص منها . وكيف حدث أن ليس عندها من الكرامة ماترى به ذاك ؟ فإن لم يكن عندها كرامة لنفسها ، فقد كان ينبغى أن يكون لها شىء من كرامة ، لأجلى ..! يجب أن يُوضّح لها أن هذا البليد لا يرى فيها شيئا ، ولا يرى إلا بوريين وحدها . لا . لا كرامة عندها ... لكننى سوف أجعلها ترى ...

كان الأمير الشيخ يعرف أنه لو قال لابنته أنها تقترف خطأ ، وأن أناتول ينوى أن يغازل مدموازيل بوريين ، لأصاب اعتبار الأميرة مارى لنفسها بجرح ، وكسب لنفسه الجولة — فلن يفترق عنها — فطايب نفسه بهذه الفكرة ، ونادى تيخون ، وبدأ يخلع ملابسه .

كان يفكر ، بينما يضع تيخون قميصه على جسمه العجوز المصوّح ، وصدره الأشيب الشعر :

— أى شيطان أتى به هنا ؟ لم أدعُه أبداً . جاءوا ليعكروا علىّ حياتى ، ولم يبق منها الكثير .

وتمتم لنفسه ، بينما ما تزال رأسه مغطاة بالقميص :

— يأخذهم الشيطان ..!

كان تيخون يعرف عادة سيده فى أن يفكّر أحيانا بصوت مرتفع ، ولذلك فقد بقى ، بمظهره لم يلحقه تغيير ، ذلك المظهر الحانق المتسائل ، على الوجه الذى طلع من القميص .

سأل الأمير :

— ذهبوا للسرير ؟

عرف تيخون ، ككل وصيف بارع ، اتجاه أفكار سيده ، وحدس

أن السؤال يشير إلى الأمير ڤاسيلى وابنه .

— ذهبا للسرير ، وأطفآ النور ، يا صاحب السعادة .

قال الأمير بسرعة :

— لاخير فى ذلك .. لا خير ...

ودفع بقدميه فى خُفّيه ، وبذراعيه فى كمّى جلبابه ، ومضى إلى الأريكة التى ينام عليها .

وعلى أن كلمة لم تتردد بين أناتول ومدموازيل بوريين ، فقد كانا يفهمان أحدهما الآخر حقّ الفهم، لغاية الجزء الأول من حكاية غرامهما ، لغاية ظهور «الأم التعسة» ، كانا يفهمان أن عندهما الكثير ، مما يقال على انفراد فى جلسة حميمة ، ومن ثمّ ، كانا يتحينان منذ الصباح سانحة يلتقيان فيها وحدهما . فلما مضت الأميرة مارى إلى غرفة أبيها ، فى الساعة المعتادة ، التقى أناتول ومدموازيل بوريين فى بيت النباتات الزجاجى .

ذهبت الأميرة مارى إلى باب غرفة المكتب ،يخامرها شعور ملحّ من الخشية والتوجس . فقد كان يخال لها ، لا أن الجميع يعرفون أن مصيرها سيقرر اليوم فحسب ، بل أنهم يعرفون أيضا ما كانت تفكر فى هذا الصدد . طالعت ذلك فى وجه تيخون ، وفى وجه وصيف الأمير ڤاسيلى، وقد انحنى لها حتى كاد يمس الأرض عندما صادفته فى الممر يحمل إناءً من ماء ساخن .

كان الأمير الشيخ شديد الحدب على ابنته، والعناية بها ذلك الصباح. وكانت الأميرة مارى تعرف حق المعرفة ذلك التعبير المتحوّط المدقق الذى يفيض اهتماماً على وجه أبيها . كان وجهه يتخذ ذلك التعبير عندما تتقبض يداه الجافتان من الضيق لعجزها عن فهم حسْبة فى الرياضة ، عندما ينهض من كرسيه فيبعد عنها ويردد كلمات بعينها ، بصوت خفيض ، مرات عدة .

وتناول الموضوع على الفور ، وهو يخاطبها باحتفال . وقال بابتسامة غير طبيعية :

— قُدّم إلىّ بشا عرض . وأظنك قد حدست أن الأمير ڤاسيلى لم يأت ، ولم يأت بتلميذه معه — وأشار الأمير بولكونسكى لأناتول بكلمة « تلميذ » لسبب ما غير معروف — لمجرد جمال عيونى . قدم لى بشأنك عرضٌ فى الليلة الماضية ، وأنا ، إذ أنك تعرفين مبادئى ، أحيله عليكِ .

قالت الأميرة وقد شحب وجهها ثم تضرج :

— كيف لى أن أفهم عنك يا أبى ؟

فصاح أبوها مغضباً :

— كيف تفهمين عنى ؟ إن الأمير ڤاسيلى قد استطابكِ زوجةً لابنه ، وهو يخطبك بالنيابة عن تلميذه . هذا ما ينبغى أن يُفهم عنى . . ! « كيف أفهم عنك » . . ! وأنا الذى أسألك . . !

همست الأميرة :

— لست أعرف رأيك يا أبى .

— أنا ؟ أنا ؟ ما شأنى أنا ؟ اتركينى خارج الموضوع . لست أنا الذى أتزوج . ماذا عنك أنتِ ؟ هذا ما أريد أن أعرف :

فرأت الأميرة أن أباها ينظر إلى المسألة بغير رضا ، وفى تلك اللحظة خطر لها أن مصيرها يتقرر الآن ، أو لا يتقرر أبداً . فخفضت عينيها حتى لا ترى النظرة التى تحدق إليها ، فلن يسعها أن تفكر ، تحت وطء هذه النظرة ، بل لن يسعها إلا أن تخضع ، من العادة ، وقالت :

— لا أريد إلا أن أفعل مشيئتك ، ولكن إذا كان علىّ أن أعبّر عن رغبتى …

ولم يتح لها الوقت أن تكمل ، فقد قاطعها الأمير الشيخ ، صائحا :

— هذا يدعو للإعجاب … سيأخذك مع مهرك ، ومع مدموازيل بوريين على الصفقة .. وستكون هى الزوجة ، بينما أنتِ …

وأقصر الأمير . رأى ما خلّفته هذه الكلمات من أثرٍ على بنته

خفضت رأسها ، وكانت على وشك أن تجهش بالبكاء . فقال :

— انظرى ، انظرى ، إننى أمزح فقط ..! تذكرى فقط يا أميرة ، إنني أدين بمبدأ أن الفتاة لها ملء الحق فى الاختيار . تذكرى فقط أن سعادة حياتك كلها تتوقف على قرارك . لا تحملى بالك إلىّ ..!

— لكنى لا أعرف يا أبى ..!

— لا داعى للكلام ..! إنه يتلقى أوامره ، وسيتزوجك أنتِ ، أو أى فتاة أخرى ، لكنك أنت لك حرية الاختيار ... اذهبى إلى غرفتك ، وفكرى ملياً ، وتعالى بعد ساعة وقولى لى فى حضوره : نعم ، أو لا . أنا أعرف أنك ستصلّين . حسناً ، صلّى إذا شئت . ولكن يحسن أن تفكرى . اذهبى ..!

كان ما يزال يصيح :

— نعم أو لا ، نعم أو لا ..! نعم أو لا ..!

عند ما كانت الأميرة قد خرجت تتعثر من غرفة المكتب ، كما لو كانت قد تاهت فى الضباب .

كان مصيرها قد تقرر ، وتقرر على نمط سعيد ، لكن ما قاله أبوها عن مدموازيل بوريين كان شيئاً مروعا . كان ذلك ، بالتأكيد ، غير صحيح ، ولكنه مع ذلك مروع ، ولم تملك إلا أن تفكر فيه . كانت تمر ببيت النباتات الزجاجى ، عابرةً به دون أن تتوقف ، لا ترى ولا تسمع شيئاً ، إذ أيقظها فجأة صوت مدموازيل بوريين المألوف ، هامسا . فرفعت عينيها ، ورأت أناتول يحتضن الفرنسية ، على خطوتين منها ، ويهمس إليها شيئا . ونظر أناتول إلى الأميرة مارى ، بنظرة مروّعة على وجهه ، لكنه لم يرفع ذراعه على التو ، من على خصر مدموازيل بوريين ، ولم تكن قد رأتها بعد .

كان يبدو أن وجه أناتول يقول :

— من هذا ؟ لماذا ؟ انتظرى لحظة ..!

نظرت إليهما الأميرة مارى فى صمت . لم تستطع أن تفهم . وأطلقت مدموازيل بوريين ، فى النهاية ، صرخة ، وجرت هاربة . وانحنى أناتول للأميرة مارى بابتسامة مرحة ، كما لو كان يدعوها أن تضحك معه من هذه الحادثة الغريبة ، ثم هز كتفيه ومضى إلى الباب الذى يفضى إلى جناحه .

وبعد ساعة جاء تيخون يدعو الأميرة مارى إلى الأمير الشيخ ، وأضاف أن الأمير ڤاسيلى هناك أيضا . ولما جاء تيخون كانت الأميرة مارى جالسة على الأريكة تحتضن مدموازيل بوريين الباكية بين ذراعيها ، وتربت شعرها برقة . كانت عينا الأميرة الجميلتان ، بكل وضاءتهما الساجية السابقة ، تنظران بمحبة حانية ، ورحمة ، إلى وجه مدموازيل بوريين الحلو .

قالت مدموازيل بوريين :

— لا يا أميرة ، إننى فقدت عطفك إلى الأبد ..!

فقالت الأميرة مارى :

— ولِمَ ؟ إننى أحبك أكثر مما مضى . وسأحاول أن أفعل كل ما فى وسعى لإسعادك .

— ولكنك تحتقريننى . أنت ، وما أطهرك ، لا يمكن أن تدركى كيف يندفع المرء فى تيار الانفعال . أوه ، فقط أمى المسكينة ...

فأجابت الأميرة مارى بابتسامة حزينة :

— إننى أدرك كل الادراك . هدئى من روعك ياعزيزتى .

وقالت وهى تمضى :

— سأذهب لأبى .

كان الأمير ڤاسيلى ، إحدى ساقيه مرفوعة عاليا على الساق الأخرى ، وفى يده صندوق للسعوط ، يجلس هناك بابتسامة انفعال عميق على وجهه ، كما لو كان ، حتى أعماق قلبه ، يجيش بالعاطفة الزاخرة ، وهو مع ذلك آسف وضاحك بنفسه من رهافة حساسيته ، عندما دخلت الأميرة مارى .

فأخذ ، متعجلا ، نشقةً ، من السعوط .

وبدأ يقول ، وهو ينهض ويأخذها من كلتا يديها :

— آه ياعزيزتى ، ياعزيزتى ..!

ثم تنهد ، وقال :

— إن مصير ابنى فى يديك . فقررى ، ياماري ، ياعزيزتى الرقيقة الطيبة التى أحببتها دائما ، حتى لابنتى ..!

ورجع خطوة ، وظهرت فى عينيه دمعة حقيقية .

فزفر الأمير بولكونسكى :

— بفرو .. بفرو ..! إن الأمير يخطبك باسم تلميذه — أعنى ابنه . فهل تريدين ، أو لا تريدين ، أن تكونى زوجة الأمير أناتول كوراچين ؟

وصاح بها :

— أجيبى ، نعم ، أو لا . ثم سأحتفظ بالحق فى أن أقول رأيى أيضا . نعم ، رأيى ، ورأيى فقط .

والتفت الأمير بولكونسكى إلى الأمير ڤاسيلى ، رداً على نظرته الضارعة ، ثم قال :

— نعم ، أو لا ؟

فأجابت بصوت قاطع ، وهى ترمق الأمير ڤاسيلى ، وأباها ، بعينيها الجميلتين :

— إن رغبتى هى ألا أفارقك أبداً يا أبى ، ألا أفصل حياتى عن حياتك أبداً . لا أرغب فى الزواج .

فصاح الأمير بولكونسكى عابساً :

— هراء ، كلام فارغ ..! هراء ، هراء ، هراء ..!

وأخذ يد ابنته ولم يقبلها ، بل أحنى جبينه إلى جبينها ، ومسه لما يكد ،

وضغط يدها حتى أغمضت عينها . وندّت عنها صرخة خافتة .

ونهض الأمير ڤاسيلى . وقال :

— ياعزيزتى . يجب علىّ أن أقول لك أن هذه لحظة لن أنساها أبداً ، أبداً . ولـكن ياعزيزتى ، ألا تمنحيننا أملاً صغيراً فى أن نمس شغاف هذا القلب الذى ما أعظم عطفه وكرمه ؟ قولى «ربما».. فما أطول المستقبل . قولى « ربما » ...

— إن ماقلتُ أيها الأمير ، هو كل ما فى قلبى . إننى أشكرك على ما أوليتنى من شرف . لـكنى لن أكون أبدا زوجة ابنك .

قال الأمير الشيخ :

— حسنا ، فهذا قد انتهى إذن ياصاحبى العزيز . ! إننى مسرور جدا ، لأننى رأيتك . مسرور جدا ..! اذهبى إلى جناحك يا أميرة .. اذهبى ..!

وردد وهو يعانق الأمير ڤاسيلى :

— مسرور جدا ، جدا ، لأننى رأيتك .

وفكرت الأميرة مارى :

— أن رسالتى فى الحياة شىء مختلف . رسالتى أن أسعد سعادةً أخرى ، سعادة الحب والتضحية بالنفس . ومهما كلفنى ذلك ، فعلىّ أن أرتب شأن إسعاد إميلى المسكينة ، فما أشد حبها له ، وما أشد ندمها على ذلك ، سأفعل كل ما يسعنى لأرتب شأن الزواج بينهما . فان لم يكن غنياً سأعطيه مالا ، سأطلب من أبى وأندرو . شد ما سوف يسعَد بأن تكون زوجته . فما أشق حظها ، وهى غريبة ، وحيدة ، لاحول لها ..! ويا رب .. ما أشد ما هى تحبه ، لاشك ، إذا كان باستطاعتها أن تنسى نفسها إلى هذا الحد ..! وعساى كنت قد فعلت نفس الشىء ..!

الفصل السادس

مضى زمن طويل منذ أن تلقى آل روستوف أنباءً من نيكولاس . ولم يتلق الكونت ، فى النهاية ، رسالة معنونة بخط ابنه ، حتى منتصف الشتاء . فلما تلقاها ، جرى ، على أطراف أصابعه ، إلى غرفة مكتبه ، متعجلا وقلقاً ، معالجاً ألا يلحظه أحد ، وأغلق الباب ، وأخذ يقرأ الخطاب .

وعندما سمعت آنا ميخايلوفنا عن وصول الخطاب ، وقد كانت تعرف كل شيء يدور بالبيت ، دخلت الغرفة بهدوء ، فوجدت الكونت والخطاب فى يده ، وهو يبكى ويضحك فى الوقت عينه .

كانت آنا ميخايلوفنا ، رغم تحسن حالها ، مازالت تقيم فى بيت روستوف .

قالت بلهجة التساؤل الأسيان ، وهى على استعداد للمشاركة بعطفها ، أياً كانت الحال :

— يا صديقى العزيز ..؟

فازداد الكونت إجهاشاً بالبكاء :

— نيكولينكا(١) .. خطاب .. كان قد جرح .. ابنى حبيبى .. الكونتيسة ... ورقى ضابطاً ... الحمد لله . . كيف نخبر الكونتيسة الصغيرة !

فجلست آنا ميخايلوفنا إلى جانبه ، ومسحت بمنديلها الدموع من عينيه ومن على الخطاب ، ثم جففت عينيها هى ، وطيبت من روع الكونت ، وقررت أنها على الغداء ، وحتى وقت الشاى ، ستقوم بإعداد الكونتيسة

---

(١) نيكولينكا : اسم التصغير للتدليل ، لنيكولاس .

لتلقى الأخبار ، وسوف تبلغها الأخبار بعد الشاى ، بعون الله .

وتكلمت آنا ميخايلوفنا طيلة الوقت على الغداء، عن أخبار الحرب ، وعن نيكولينكا ، وسألت مرتين عن تاريخ آخر خطاب منه ، على علمها بذلك ، وقالت أنه من المحتمل جداً أن يتلقوا منه خطابا ذلك اليوم . فإذا بدأت هذه التلميحات فى استثارة قلق الكونتيسة ، وجعلتها ترمق الكونت وآنا ميخايلوفنا ، فى غير راحة ، كانت الأخيرة تدير الحديث بحذق وبراعة إلى مواضيع تافهة لا معنى لها . وكانت ناتاشا أكثر أفراد الأسرة موهبة فى مقدرتها على الاحساس بأى ظلال فى نبرة الصوت ، والنظرة ، والتعبير . فأرهفت السمع منذ بداية الطعام ، وكانت موقنة أن هناك سراً بين آنا ميخايلوفنا وأبيها ، وأنه يتعلق بأخيها ، وأن آنا ميخايلوفنا كانت تعدّهم لتلقى الخبر . وعلى جسارة ناتاشا ، كانت تعرف مدى حساسية أمها بكل شيء يتعلق بنيكولينكا ، فلم تجرؤ أن تسأل سؤالاً ما على الغداء ، ولكن انفعالها كان من الحدة حتى حال دونها وأن تأكل شيئا ، بل ظلت تتململ فى كرسيها ، بغض النظر عن تعليقات مربيتها . واندفعت بعد الغداء مباشرة فى أعقاب آنا ميخايلوفنا ، وانطلقت إليها كالسهم ، وألقت بنفسها على عنقها بمجرد أن لحقت بها فى غرفة الجلوس :

— عمتى يا حبيبتى ، قولى لى الأخبار ..!

— لا شيء يا عزيزتى .

— لا يا أعز الناس إلىّ ، ياحلوة ، ياحبيبتى ، لن أتركك — إننى أعرف أنك تعرفين شيئا .

فهزت آنا ميخايلوفنا رأسها ، وقالت :

— أنت خبيثة صغيرة ..!

وهتفت ناتاشا ، وقد طالعت الخبر اليقين فى وجه آنا ميخايلوفنا :

— خطاب من نيكولينكا .! أنا متأكدة ..!

— ولـكن احترسى بحق الله ، فأنت تعرفين كيف قد يؤثر ذلك على ماما .

— سأحترس ، سأحترس ، فقط قولى لى ..! ألا تقولين ؟ سأذهب إذن وأقول لها على الفور .

فقالت لها ، بكلمات قليلة ، مضمون خطاب أخيها ، بشرط ألا تقول لأحد .

وقالت ناتاشا وهى ترسم علامة الصليب :

— أبداً ، كلمة شرف حقيقية ، لن أقول لأحد ..!

وجرت على الفور إلى سونيا .

وأعلنت ، فى ظَفَر ملىء بالابتهاج :

— نيكولينكا ... جُرح ... خطاب .

كان كل ما قالت سونيا :

— نيكولاس ..!

وقد استحال لونها على الفور إلى بياض

فلما رأت ناتاشا أثر الأخبار عن جرح أخيها على سونيا ، أحست للمرة الأولى بالجانب المحزن من الخبر .

فاندفعت إلى سونيا ، واحتضنتها بعنف ، وبدأت تبكى ، وقالت من خلال دموعها :

— جُرح جرحاً بسيطاً ، لـكنه أصبح ضابطا ، وهو الآن بخير ، كتب الخطاب بنفسه .

وقال بيتيا وهو يذرع الغرفة بخطىً واسعة فيها عزم وتصميم :

— ها أنتم ..! حقا ، أنتن جميعا أيها النساء كلكن بكّاءت ..! أما أنا فمسرور جداً ، جداً حقا ، لأن أخى قد أثبت شجاعته هكذا . أنتن جميعا تنهنهن بالبكاء ولا تفهمن شيئا .

فابتسمت ناتاشا من خلال دموعها .

وسألت سونيا :

ــ ألم تقرئي الخطاب !

ــ لا ، ولكنها قالت أن كل شيء قد انتهى ، وأنه الآن ضابط .

قالت سونيا ، وهي ترسم علامة الصليب على نفسها :

ــ الحمد لله ... ! ولكن لعلها قد خدعتك . فلنذهب إلى ماما .

وطفق بيتيا يذرع الغرفة بعض الوقت .

وقال :

ــ لو أنني كنت في مكان نيكولينكا ، لقتلت مزيداً من هؤلاء الفرنسيين . ما أقذرهم من حيوانات ..! كنت قتلت منهم عدداً يكفي لأن تصبح منهم كومة عالية .

ــ اسكت يابيتيا ، أنت حمار ... !

قال بيتيا :

ــ أنا لستُ حمارا ، ولكن الحمير من يبكون من أجل التوافه .

سألت ناتاشا بعد لحظة صمت :

ــ هل تذكرينه ؟

فابتسمت سونيا :

ــ هل أذكر نيكولاس ؟

قالت ناتاشا ، بحركة معبّرة ، وهي تريد ، فيما هو واضح ، أن تعطي كلماتها معنىً محدداً جداً :

ــ لا يا سونيا ، هل تذكرين ، بحيث تذكرينه تماماً ، تذكرين كل شيء ؟ إنني أذكر نيكولينكا أيضاً . أذكره تماماً . لكنني لا أتذكر بوريس . لا أتذكر منه شيئاً .

فسألت سونيا مندهشة :

— ماذا ؟ لا تتذكرين بوريس ؟

— ليس الأمر أنى لا أتذكره — فأنا أعرف شكله ، ولكن ليس كما أتذكر نيكولينكا . إنى أغمض عينى ، فاتذكره ، أما بوريس .. لا ..!

وأغمضت عينيها .

— لا ، لا شيء بالمرة ..!

قالت سونيا ، وهى تنظر إلى صديقتها ، نظرة جادّة رصينة نَشْوى ، كما لو لم تكن تراها جديرة بما تنوى أن تقول ، كما لو كانت تقوله لشخص آخر ، لا محل معه للمزاح :

— إنى أحب أخاك ، مرة واحدة وأخيرة . ومهما حدث له أو لى ، فلن أكف عن حبه ، ما حييت .

فنظرت ناتاشا إلى سونيا ، بعينين متسائلتين دهشتين . ولم تقل شيئاً . أحست أن سونيا كانت تقول الحق . وأن هناك حباً كذلك الذى تتكلم عنه سونيا . لكن ناتاشا لم تكن بعد قد أحست شيئا يماثله . كانت تؤمن أنه يمكن أن يحدث ، لكنها لم تكن تفهمه .

فسألتها :

— هل ستكتبين له ؟

فبدت على سونيا سمات التفكير . كانت مسألة كيف تكتب لنيكولاس ، وما إذا كان ينبغى لها أن تكتب ، مسألة تعذبها . والآن وقد أصبح ضابطا ، وبطلا جريحا ، أيليق أن تذكره بنفسها ، وبالالتزامات التى أخذها على عاتقه ، فيما قد يبدو ، بازائها ؟

قالت وهى تتضرج خجلا :

— لا أدرى . أعتقد أنه لو كتب ، فسأكتب ايضا .

— ولن تشعرى بالخجل أن تكتبى له ؟

فابتسمت سونيا .

— لا .

— وأنا أخجل من أن أكتب لبوريس . فلن أفعل

— لماذا تخجلين ؟

— لا أدرى . هذا شيء محرج ، وسوف يخجلنى .

فقال بيتيا ، وقد غضب من كلمة ناتاشا السابقة :

— وأنا أعرف لماذا تخجل . ذلك لأنها كانت تحب ذلك البدين ذا النظارات .

(ذلك ما كان بيتيا يطلق على سميّه الكونت بيزوخوف الجديد) .

— وهى الآن تحب ذلك المغنى .

(كان يقصد معلّم ناتاشا الإيطالى فى الغناء)

— ذلك هو السبب فى أنها تخجل ..!

قالت ناتاشا :

— بيتيا ، أنت غبى ..!

قال بيتيا البالغ من العمر تسع سنوات ، وقد اتخذ مظهر ضابط قديم شيخ :

— لستُ بأغبى منك يا سيدتى .

كانت الكونتيسة قد استعدت ، فقد فهمت تلميحات آنا ميخايلوفنا على الغداء . فمنذ ما آوت إلى غرفتها ، جلست فى مقعد مريح ، وعيناها مثبتتان بصورة دقيقة صغيرة لابنها ، على غطاء صندوق للسعوط ، بينما الدموع ماتنى ترتفع إلى عينيها . وجاءت آنا ميخايلوفنا ، ومعها الخطاب ، على أطراف قدميها ، إلى باب الكونتيسة ، ووقفت هناك .

وقالت للكونت الشيخ الذى كان يتبعها :

— لا تدخل . تعالَ فيما بعد .

ودخلت ، وأقفلت الباب وراءها .

وضع الـكونت أذنه على ثقب المفتاح ، وأصاخ السمع .

سمع أولا رنة أصوات غير مستبينة ، ثم صوت آنا ميخايلوفنا وحده ، بكلام طويل ، ثم صيحة ، وصمت والصوتين معا بنبرات فرحة ، ثم وقع خطى . فتحت آنا ميخايلوفنا الباب . كان وجهها يكتسى بمظهر فيه فخار الجرّاح الذى قام للتو بعملية صعبة ، وهو يسمح للجمهور أن يعجب ببراعته .

قالت للـكونت مشيرةً إلى الـكونتيسة بانتصار :

ـــ قد تمت المسألة ..!

وقد جلست الـكونتيسة تمسك بصندوق السعوط والصورة فى يد ، والخطاب فى اليد الأخرى ، تضغطانهما واحداً بعد الآخر إلى شفتيها .

فلما رأت الـكونت مدت إليه ذراعيها ، واحتضنت رأسه الصلعاء ، ونظرت من فوقها ثانية إلى الخطاب والصورة ، وحتى تضغطها ثانية إلى شفتيها تحت الرأس الصلعاء قليلا . ودخلت الآن ڤيرا ، وناتاشا ، وسونيا ، وبيتيا إلى الغرفة ، وبدأت قراءة الخطاب .

بعد أن وصف نيـكولاس الحملة والموقعتين اللتين اشترك فيهما وصفاً موجزاً ، قال أنه يقبل يدى أبيه وأمه ، ويسألها البركة ، وأنه يقبل ڤيرا وناتاشا وبيتيا ، ثم أرسل فضلا عن ذلك تحياته إلى مسيو شلنج ، ومدام شوس ، مربيته العجوز ، وطلب منهم أن يقبلوا له « عزيزتى سونيا التى يحبها ويفكر فيها شأنه دائما » ، ولما سمعت سونيا هذا ، تضرجت خجلا حتى صعدت الدموع إلى عينيها ، ولم تطق احتمال النظرات التى استدارت إليها ففرت تجرى إلى قاعة الرقص ، ودارت فيها كالعاصفة بملء سرعتها ، ورداؤها قد انبسط وانتفخ حولها كالبالون ، وحطت على الأرض متضرجة الوجه باسمة .

وكانت الـكونتيسة تبكى .

فسألتها ڤيرا :

— لماذا تبكى يا ماما ؟ ينبغى للمرء ، من كل ما قال ، أن يسر لا أن يبكى .

وكان ذلك صحيحاً كل الصحة ، ولكن الكونت ، والكونتيسة وناتاشا ، نظروا إليها فى عتب . وفكرت الكونتيسة :

— ومَن تشبهه فى خصالها ؟

قرئ خطاب نيكولاس مئات من المرات ، وكان أولئك الذين يعدّون جديرين بسماعه ، عليهم أن يأتوا إلى الكونتيسة ، فلم تكن تدعه من يدها . لجاء المدرسون ، والمربيات ، وديمترى ، ومعارف كثيرون ، وأعادت الكونتيسة قراءة الخطاب ، فى كل مرة ، بسرور جديد ، وفى كل مرة كانت تكتشف أدلة جديدة على سجايا نيكولاس الفاضلة . وكان يلوح لها أنّ ما أغرب ، وما أروع ، وما أسعد أن يكون ابنها ، الذى أحست بحركات أطرافه الدقيقة ، لا تكاد تُحس ، فى داخلها ، منذ عشرين سنة ، ذلك الابن الذى كم كانت تختصم بشأنه مع الكونت الكثير التساهل ذلك الابن الذى تعلّم أولاً أن يقول « كمثرى » قبل أن يقول «جدى» . أن هذا الابن بعيد الآن فى أرض أجنبية ، بين أشياء غريبة ، مقاتلٌ ورجل يقوم بعمل من أعمال الرجال ، دون معونة ودون إرشاد . كانت تجربة الأجيال العالمية التى تقول أن الأطفال يكبرون فملأً من المهاد فيبلغون مبلغ الرجال ، لا وجود لها عند الكونتيسة . كان نمو ابنها نحو الرجولة ، يبدو لها فى كل مرحلة من مراحله ، باهراً ، كما لو لم توجد أبداً ملايين الكائنات البشرية التى نمت وكبرت على نفس النمط . وكما لاح لها مستحيلا ، منذ عشرين سنة ، أن المخلوق الصغير الذى كان يعيش فى مكان ما تحت قلبها سوف يصرخ أبداً ، ويرضع ثديها ، ويأخذ فى الكلام ، كذلك كانت لا تستطيع أن تصدّق أن هذا المخلوق الصغير يمكن أن يكون ذلك الرجل القوى الشجاع ، هذا الابن النموذجى والضابط النموذجى الذى

كانه الآن ، بناءً على خطابه .

قالت وهى تقرأ الجانب الوصفى من الخطاب :

— يا له من أسلوب ... وكم هو ساحر الوصف ..! ويا لها من روح نبيلة ..! ولا كلمة عن نفسه ... ولا كلمة ..! يتكلم عن شخص يدعى دينيزوف أو غيره ، وإن كنت لا أشك فى أنه أشجع منهم جميعا ..! ولا يقول شيئا عن آلامه . يا له من قلب ..! وما أشبهه به .! وكيف تذكر الجميع ..! لم ينس أحداً .. كنت دائما أقول ، عند ما كان فى مثل هذا الطول ، كنت دائما أقول ..

واستمرت الاستعدادات أكثر من أسبوع ، وكتبت مسودات خطابات إلى نيكولاس ، كتبها ونسخها كل أفراد العائلة ، بينما جمعت النقود وكل ما هو ضرورى لحلّة الضابط الجديد وكل مهماته ، تحت إشراف الكونتيسة ، ورعاية الكونت . بل استطاعت آنا ميخايلوفنا ، وهى المرأة العملية . أن تضمن لها ولابنها وسائل اتصال لها مزاياها . عن طريق وساطة سلطات الجيش ، كانت أمامها فرص إرسال خطاباتها إلى الجراندوق قسطنطين باڤلوڤيتش الذى كان يقود الحرس . كان آل روستوف يفترضون أن « الحرس الروسى » ، بالخارج » عنوان محدد تمام التحديد ، وأنه إذا وصل خطاب إلى الجراندوق الذى يقود الحرس ، فليس ثمة ما يحول دون وصوله إلى فرقة باڤلوجراد ، والمفروض أنها فى مكان ما مجاور . ومن ثم تقرر إرسال الخطابات والنقود إلى بوريس ، عن طريق مراسلة الجراندوق ، وكان على بوريس أن يرسلها إلى نيكولاس . وكانت الخطابات من الكونت الشيخ ، والكونتيسة ، وبيتيا ، وڤيرا ، وناتاشا ، وسونيا ، وكان هناك فى النهاية ستة آلاف روبل لإعداد ملابسه ومهماته ، وأشياء شتى أخرى أرسلها الكونت الشيخ لابنه

الفصل السابع

فى الثانى عشر من نوفمبر كان جيش كوتوزوف العامل ، فى معسكره أمام أولمتز ، يستعد لأن يستعرضه الامبراطوران : الروسى والنمسوى ،فى اليوم التالى . وكان الحرس قد وصلوا على التو من روسيا ، فقضوا الليلة على عشرة أميال من أولمتز ، وكان عليهم أن يأتوا مباشرة إلى الاستعراض فى الصباح التالى ، فيبلغوا أولمتز فى العاشرة صباحاً .

وفى ذلك اليوم تلقى نيكولاس روستوف خطابا من بوريس ينبئه بأن فرقة إسمايلوف معسكرة ليلتها على عشرة أميال من أولمتز ، وانه يريد أن يراه إذ كان لديه خطاب ونقود له . كان روستوف بحاجة ماسة إلى النقود فقد كانت القوات الآن ، بعد عملها فى الميدان ، مرابطة بالقرب من أولمتز وكان المعسكر يموج بالمتعهدين المزودين بالمؤن الحسنة ، واليهود النمسويين الذين يعرضون كل أنواع السلع المغرية . وكان جنود بافلوجراد يقيمون الحفل بعد الحفلِ ، يحتفون بالجوائز التى تلقوها عن الحملة ، وكانوا يقومون برحلات إلى أولمتز ، لزيارة سيدة بعينها تدعى كارولين الهنغارية كانت قد افتتحت حديثاً مطعما تقوم فيه البنات بالخدمة . وكان روستوف قد احتفل منذ قريب بترقيته إلى ضابط حامل علم ، واشترى حصان دينيزوف ، «بدوى» وكان غارقا فى الدين إلى عنقه ، لزملائه وللمتعهدين . فلما تلقى بوريس ركب مع زميل له ضابط ، إلى أولمتز ، وتغدى هناك ، وشرب زجاجة من النبيذ ، وشد رحاله وحده إلى معسكر الحرس ، فى طلب زميل صباه القديم . لم يكن روستوف قد أتيح له الوقت أن يحصل على حلته ، كان يرتدى سترة رثة من سترات ضباط الصف ، محلاة بصليب من صلبان الجنود ، وبنطلون ركوب مما يرتديه ضباط الصف فى رثاثة السترة ، مبطن بجلد بال ٍ ، وسيفا من سيوف الضباط له عقدة . وكان

الحصان الذى يمتطيه حصانا من منطقة الدون اشتراه من قوزاقى أثناء الحملة وكان يرتدى قبعة من قبعات الفرسان مشعثة مغضنة وقد رشقها إلى الخلف بجسارة وأناقة ، على أحد جانبي رأسه . وعند ما كان يركب إلى المسكر كان يفكر فى أنه سيؤثر على بوريس ، وكل زملائه فى الحرس ، بمظهر — مظهر فارس محارب كان تحت النيران .

كان الحرس قد قاموا بمسيرتهم كلها ، كما لو كانوا فى رحلة للنزهة ، يستعرضون نظافتهم ونظامهم . وكانوا قد جاءوا على مراحل هينة يسيرة ، وجرابندياتهم تحملها على العربات ، ووفرت السلطات النمسوية للضباط وجبات فاخرة عند كل محطة . وكانت الفرق قد دخلت المدن وخرجت منها تعزف موسيقاها ، وكان الجنود ، بأوامر الجراندوق ، يسيرون خطوة عسكرية طوال الطريق ، وهو شيء كان يباهى به الحرس ، والضباط على أقدامهم وفى مراكزهم الصحيحة . وكان بوريس قد أفرد له سكن خاص ، وسار طيلة المسافة ، برفقة بيرج الذى كان من الآن يقود إحدى السرايا . وكان بيرج قد نال رتبة الكابتن أثناء الحملة ، وكان قد ظفر بثقة رؤسائه ، بيداهته واعتداده بنفسه ، وكان قد سوى شئونه المالية بشكل مرض للغاية .

وكان بوريس أثناء الرحلة قد تعرف إلى الكثيرين ممن قد يكونون ذوى فائدة له ، وقد تعرف ، عن طريق خطاب أتى به من بيير ، إلى الأمير أندرو بولكونسكى ، وكان يأمل بوساطته أن يحصل على مركز فى هيئة أركان حرب القائد العام . كان بيرج وروستوف قد استراحا بعد سير الأمس ، وكانا يجلسان ، نظيفين أنيقى اللبس ، حول مائدة مستديرة فى السكن النظيف الذى أفرد لهما ، يلعبان الشطرنج . وكان بين ركبتى بيرج بيبته ، وبوريس ، يبنى هرماً من قطع الشطرنج ، بأصابعه البيضاء الرقيقة ، بالطريقة الدقيقة التى يمتاز بها ، بينما ينتظر دور بيرج ، ويرقب وجه خصمه ، وواضح أن يفكر فى اللعبة ، فقد كان لا يفكر ، على الدوام ،

إلا فيما يشتغل به لحظتها .

قال :

ـــ حسناً ، كيف ستخرج من هذا ؟

فأجاب بيرج وهو يمس قطعة من الشطرنج ثم يبعد يده :

ـــ سنحاول

وفى تلك اللحظة انفتح الباب .

صاح روستوف :

ـــ ها هو ذا فى النهاية ..! وبيرج أيضا ..!

وهتف مقلداً كلمة مربيته الروسية عند ما كانت تقول بالفرنسية :

ـــ أوه ، يا أولاد ، هيّا اذهبوا ناموا ..!

وكان هو وروستوف قد اعتادا أن يضحكا لهذا منذ زمن طويل .

ـــ يا إلهى ، كيف تغيّرت ..!

نهض بوريس ليلق روستوف ، لكنه لم يغفل ، إذ يفعل ذلك ، أن يثبت بعض قطع الشطرنج التى كانت بسبيلها أن تقع ، وأن يعيدها إلى مكانها . وكان يوشك أن يعانق صديقه ، لكن نيكولاس تحاماه . كان نيكولاس يريد أن يفعل شيئا خاصا عند لقاء صديقه ، بذلك الإحساس الخاص بالشباب ، والخشية من الطرائق المعبّدة المألوفة ، والرغبة فى التعبير عن نفسه بشكل يغاير ما ألفه الأولون ، رغبة فى الغالب غير صادقة . كان يريد أن يقرصه ، أن يلكزه ، أن يفعل أى شىء إلا أن يقبّله — وهو ما يفعله الجميع . ولكن بوريس ، على الرغم من ذلك ، عانقه بطريقة ودودة هادئة ، وقبّله ثلاث مرات .

لم يكونا قد التقيا منذ قرابة نصف عام ، ولما كانا فى تلك السن التى يخطو فيها الشبان أولى خطواتهم فى طريق الحياة ، فقد رأيا تغيرات هائلة فى أحدهما الآخر ، رأيا انعكاساً جديداً كل الجدة من ذلك المجتمع الذى

اتخذ فيه كل منهما تلك الخطوات الأولى . كانا كلاهما قد لحقتهما تغيرات كبيرة منذ التقيا آخر مرة ، وكان كلاهما على عجلة من أن يُظهر الآخر على ما لحقه من تغيّر .

هتف روستوف ، وهو يخطو متبختراً فى خطىً عسكرية ، وبنبرات من صوتٍ أجشّ جديد على بوريس ، وهو يومىء إلى بنطلونه الذى لطخه الوحل :

— يالها من أناقة ..! ها أنتم فى نظافة وطراوة من يأتى من حفلة ، لا شأننا نحن الخطاة المذنبين الذين فى الجبهة .

ولما سمعت صاحبة البيت الألمانية صوت روستوف المرتفع ، أطلت برأسها من الباب .

وسأل روستوف وهو يغمز :

— هيه .. أجميلة هى ؟

قال بوريس :

— لماذا تصيح على هذا النحو ؟ سوف تُدخل عليهم الرعب ..!

وأضاف :

— لم أكن أنتظرك اليوم . فقد أرسلت لك الورقة أمس فقط ، عن طريق بولكونسكى . وهو ياور عند كوتوزوف وأحد أصدقائى . ولم أكن أظن أنه يستطيع أن يوصلها إليك بهذه السرعة . . حسنا ، كيف أنت ؟ كنت تحت النيران بالفعل ؟

فلم يجب روستوف ، بل هز صليب سان جورج المثبت بشرائط حلته ، وأشار إلى ذراعه المعصوبة ، ورمق بيرج مبتسما . وقال :

— كما ترى .

قال بوريس مبتسما :

— حقاً ؟ نعم ، نعم ..! نحن أيضاً قمنا بسير رائع . أنت تعرف

بالطبع أن صاحب السمو الأمبراطورى ركب مع فرقتنا طول الوقت ، فأتيحت لنا كل الراحة وكل الميزات . وياللحفلات التى حضرناها فى بولندا ..! يالحفلات العشاء والرقص ..! لا أستطيع أن أخبرك . وكان ولى العهد كريماً جداً مع كل ضباطنا .

وأخذ الصديقان يحكيان لأحدهما الآخر عن أعمالهما ، يحكى أحدهما عن عربدته ومرحه مع الفرسان ، وعن الحياة فى خط القتال ، بينما يحكى الآخر عن مسرات وميزات العمل تحت قيادة أعضاء الأسرة الأمبراطورية .

قال روستوف :

— أوه .. أنتم الحرس ..! قل لى ، أرسل فى طلب شىء من نبيذ .

فأتى بوريس بحركة ، وقال :

— إذا كنت حقاً تريد ذلك .

وذهب إلى سريره ، وأخرج من تحت المخدة النظيفة كيس نقود ، وأرسل فى طلب النبيذ . وقال :

— نعم ، وعندى لك نقود وخطاب .

أخذ روستوف الخطاب ، ورمى بالنقود على الأريكة ، ووضع ذراعيه كلتيهما على المائدة ، وبدأ يقرأ . وبعد أن قرأ بضع سطور ، رمق بيرج بنظرة غاضبة ، وعندما التقت عيناه بنظرته وارى وجهه خلف الخطاب .

قال بيرج وهو يحدج كيس النقود الثقيل الذى غاص على الأريكة :

— ها هم قد أرسلوا إليك مبلغاً طيباً . أما نحن يا كونت ، فنحن ندبر أمرنا بمرتبنا . وأستطيع أن أقول لك ، عن نفسى ..

قال روستوف :

— اسمع يابيرج ، يا صاحبى العزيز ، عندما تتسلم خطاباً من البلد ، وتلتقى بواحد من أصدقائك تريد أن تتكلم معه عن كل شىء ، ويتصادف أن أكون موجوداً ، فسأذهب على الفور ، حتى أخلى لك الجو ..!

اذهب إلى مكان ما ، أى مكان ..

وهتف به :

— رُح فى داهية . !

وأمسك به على الفور من كتفه ، ونظر إلى وجهه بوّد ولطف ، وهو يبغى بوضوح أن يهوّن من جفوة كلماته ، وقال :

— لا تغضب يا صاحبي العزيز ، أنت تعرف أننى أتكلم من قلبى ، كما أتكلم إلى صديق قديم

فقال بيرج وهو ينهض ، بصوت مكتوم به غصة :

— العفو يا كونت ..! إننى أفهم كل الفهم .

فقال بوريس :

— إذهب إلى مضيفتك ، فقد وجهوا إليك دعوة..

فلبس بيرج أنظف حلله ، لا تشوبها شائبة من غبار ، ووقف أمام مرآة ، ومر بالفرشاة على شعره ، فمشط شعر صدغيه إلى أعلى ، بالطريقة التى يتخذها الأمبراطور ألكسندر ، فإذا أيقن ، من نظرة روستوف إلى حلته ، أنه قد لحظها ، بارح الغرفة بابتسامة لطيفة .

فتمتم روستوف ، وهو يقرأ الخطاب :

— يالى من جلف . !

— لماذا ؟

— يالى من خنزير ، لم أكتب مرة واحدة ، ثم أخيفهم إلى هذا الحد ..! يالى من خنزير !

وقال وهو يتضرج فجأة :

— هل أرسلت جبريل ليأتى بالنبيذ ؟ حسنا ، فلنشرب إذن ..!

كان الخطاب المرسل من والديه مرفقاً به خطاب توصية إلى باجراتيون حصلت عليه الكونتيسة العجوز ، بناءً على نصيحةٍ من آنا ميخايلوفنا ،

عن طريق أحد معارفها ، وأرسلته إلى ابنها وطلبت منه أن يأخذه إلى وجهته فيفيد منه .

قال روستوف وهو يرمى بالخطاب تحت المائدة :

— يا له من هراء ..! كما لو كنت بحاجة إليه ..!

فسأله بوريس :

— لماذا رميت به ؟

— إنه خطاب توصية ما ... فيم أريده بحق الشيطان ؟

قال بوريس وهو يلتقط الخطاب ويقرأ العنوان :

— ولمَ « بحق الشيطان » ؟ هذا الخطاب يفيدك فائده كبرى .

— لست أريد شيئا ، ولا أريد أن أكون ياوراً لأحد .

فسأل بوريس :

— ولم لا ؟

— إنها شغلة خدّام ..!

فقال بوريس وهو يهز رأسه :

— مازلت ، كما أرى ، حالماً كالمعتاد .

— وما زلت أنت ديبلوماسياً كالمعتاد ..! ولكن هذا ليس هو الموضوع ... قل لى ، كيف حالك ؟

— كما ترى كل شيء حتى الآن على ما يرام ، لكنى أعترف أنى أحب كثيراً أن أكون ياوراً ولا أبقى فى الجبهة .

— لماذا ؟

— لأن المرء إذا بدأ حياته فى العسكرية ، فينبغى أن يحاول النجاح فيها إلى أقصى حد ممكن .

قال روستوف ، وواضح أنه يفكر فى شىء آخر :

— أوه ، هذا هو السبب إذن !

ونظر نظرة متسائلة مُلحّة إلى عيني صديقه ، محاولاً في غير ما طائل ، كما هو واضح ، أن يجد إجابة عن سؤال ما .

وأتى جبرييل العجوز بالنبيذ .

سأل بوريس :

أنرسل الآن ندعو بيرج . سيشرب معك ، أما أنا فلا أستطيع .

— حسناً فلنرسل في دعوته .

ثم قال روستوف بابتسامة ازدراء :

— وكيف حالك مع هذا الألمانيّ ؟

فأجاب بوريس :

— إنه فتى لطيف جداً جداً ، وأمين ، وظريف .

فنظر روستوف ثانية إلى عيني بوريس ، بإلحاح ، وتنهد . وعاد بيرج وحمى الحديث بين الضباط الثلاثة ، على زجاجة النبيذ ، وأخبر ضابطا الحرس روستوف عن سيرهما ، وكيف احتفي بهم في روسيا ، وبولندا ، وفي الخارج . وتكلما عن أقوال قائدهما ، والجراندوق ، وأفعاله ، وحكيا حكايات عن طيبة قلبه وحدة طبعه . وصمت بيرج ، كعادته ، عند ما لا يدور الحديث حوله شخصياً ، أما الحكايات عن حدة طبع الجراندوق فقد قصّ ، في استمتاع وحيوية ، كيف استطاع في جاليشيا أن يعالج الجراندوق عند ما كان الأخير يطوف بالفِرَق ، وضاق بحركة غير مضبوطة . وحكى بيرج ، بابتسامة لطيفة ، كيف ركب إليه الجراندوق ، وقد استشاط غضباً وهو يهتف :

— يا أرناؤوط ..!

---

(١) كان الأرناؤوط هم الألبانيون الذين يلتحقون بالجيش التركي ، وكانوا مشهورين بأنهم فرسان لا يعرفون النظام .

كانت كلمة أرناؤوط هى تعبير ولى العهد الأثير لديه عند ماتثور ثائرته .

وطلب ولى العهد أن يستدعى قائد السرية .

— وهل تصدق يا كونت ، لم أكن قلقاً بالمرة ، فقد كنت أعرف أننى محقّ . وأنت تعرف ، دون مباهاة ... يجب أن أقول أننى أحفظ لوائح الجيش عن ظهر قلب ، وأعرف التعليمات كما أعرف صلاة « أبانا الذى فى السماوات » . ولذلك يا كونت لم يكن هناك أبداً أى إهمال فى سريتى ، ولذلك كان ضميرى مستريحاً . وتقدمت ..

ونهض ، وأوضح كيف تقدمّ ، يده على قبعته ، وكان يصعب ، فى الحق ، على أن يعبّر وجهٌ ما عن احترام أوفر ، أو اعتداد بالنفس أكبر مما كان يعبر عنه وجهه .

— وأخذ يرغى ويزبد ، كما يقولون ، يرغى ويزبد ..! لكنها لم تكن مسألة حياة ، بل مسألة موت ، كما يقال .

وقال بيرج بابتسامة فيها جماع الحكمة :

— « يا ألبانيون ..! » « يا أبالسة..! » « إلى سيبيريا ..! » وكنت أعرف أننى على صواب ، فبقيت صامتاً ، ألم يكن ذلك أحسن يا كونت ؟ وصاح بى : «هيه ، أبكم .. أنت ؟» . ومع ذلك بقيت صامتاً وماذا تظن يا كونت ! لم يذكر ذلك ، فى الغد ، فى الأوامر اليومية حتى ! هذه نتيجة أن يحتفظ المرء برباطة جأشه . هذه هى الطريقة يا كونت .

وأشعل سيجارته ، ونفث حلقات من الدخان .

قال روستوف باسماً :

— نعم ، هذا عظيم .

على أن بوريس لاحظ أنه على وشك السخرية ببيرج ، فغيّر الموضوع بحذق . وسأله أن يحكى لهما كيف أصيب بهذا الجرح ، وأين . فسرّ ذلك روستوف ، وأخذ يتكلم عنه ، وحمى حديثه إذ اطّرد . وحكى لهما عن

مسألة شون جرابيرن ، كما يصف ذلك أولئك الذين يشتركون فى الواقع ، فهم يصفونها كما لو كانوا يودون لو حدثت على النحو الذى يقولون ، وكما سمعوا الآخرين يصفون ، وعلى النحو الذى يحسن وقعه فى السمع ، لا كما تحدث فعلاً فى الحقيقة . كان روستوف فتى صادقاً ، ولم يكن بأى حال ليقول كذباً عن عمد أو تدبّر . وكان قد بدأ حكايته ، وفى نيته أن يقول كل شىء على وجهه ، كما وقع ، لكنه نكص إلى الزيغ ، دون أن يحس ، وعن غير طواعية ، ودون أن يكون عن ذلك معدى . كان مستمعاه مثله ، قد سمعا حكايات كثيرة عن الهجوم ، وصاغا لنفسيهما فكرة محددة قاطعة عما هو الهجوم ، وكانا ينتظران أن يسمعا حكاية بالضبط على هذا الغرار — فلو أنه قال لهما الحق ، لما صدّقاه ، أو لظنّاه حقيقاً باللوم ، إذ لم يقع له ما يقع عادةً لرواة الحكايات عن هجمات الفرسان . وذلك أنكى . لم يكن يسعه أن يقول لهما ببساطة ، أن كل امرىء قد انطلق يعدو خبَباً ، وأنه سقط عن حصانه ، فالتوى ذراعه ، ثم جرى بأسرع ما كان يطيق فراراً من أحد الفرنسيين ، إلى داخل غابة . فضلا عن أن رواية كل شىء كما حدث حقيقة ، كانت تقتضى إجهاد الإرادة لرواية ما حدث فحسب ، ورواية الصدق شىء شاق ، وهى شىء لا يطيقه الشبان إلا نادراً . كان مستمعاه ينتظران حكاية عنه وقد اشتعل حماساً وفقَد سيطرته على نفسه ، فطار كالعاصفة إلى الطابور ، وشق طريقه فيه ، وأطاح بسيفه يمنة ويسرة ، كيف ذاق سيفه طعم الأجساد الجريحة ، وكيف سقط مرهقاً ناء به الكلال ، وهلم جرا . ومن ثم قال لهما ذلك كله .

وفى وسط حكايته عند ما كان يقول :

— لا تستطيعان أن تتصورا أى سورة غريبة من الجنون يحسها المرء أثناء الهجوم .

دخل الغرفة الأمير أندرو ، وقد كان بوريس ينتظره . كان الأمير

أندرو يجب أن يكون ذا عون للشبان ، وقد طاب نفساً بأن يطلب منه العون ، وكان يصبو بالرضا إلى بوريس ، فقد استطاع هذا أن يدخل عليه السرور فى البارحة ، فأراد أن يفعل ما يبغيه منه الفتى . ولما كان قد أرسله كوتوزوف ببعض الأوراق إلى ولى العهد ، فقد مر على بوريس وفى مرجوه أن يجده وحده . فلما دخل ورأى فارساً آتياً من الجبهة يروى قصص أعماله الحربية — ولم يكن الأمير أندرو يطيق هذا الضرب من الرجال — ابتسم لبوريس ابتسامة لطيفة ، وعبس كما لو كان يغمض عينيه نصف إغماضة إذ نظر إلى روستوف ، وانحنى انحناءة هينة متعبة ضجرة ، وجلس على الأريكة فى استرخاء ، وقد خامره حس بالضيق لأنه وقع على رفقة لا تُستحب وتضرج وجه روستوف إذ لحظ ذلك ، لكنه لم يجعل لذلك بالاً ، فقد كان هذا شخصاً غريباً أجنبياً ، لا أكثر ، على أنه رمق بوريس فرأى أنه يبدو أيضا كما لو كان خجلا من الفارس الذى أتى من الجبهة .

وعلى الرغم من لهجة الأمير أندرو الساخرة التى لا تُستحب ، وعلى الرغم من الزراية التى كان ينظر بها روستوف ، من وجهة نظر المحارب فى الجيش ، إلى كل هؤلاء الياورين فى هيئة الأركان ، والقادم الجديد فيما هو واضح واحد من هؤلاء ، فقد خامر روستوف شعور بالارتباك ، وتضرج وجهه ، وصمت . وسأل بوريس عما قد يكون فى هيئة الأركان من أخبار ، وعما يمكن للمرء أن يسأل عنه ، فيما يتعلق بخططنا ، دون أن يجاوز حدود الحيطة الواجبة .

فقال بولكونسكى ، على غير رضاً منه ، فيما هو واضح ، أن يزيد ، فى محضر شخص غريب :

— سنتقدم على الغالب .

فانتهز بيرج الفرصة ليسأل ، بأدب عظيم ، ما إذا كانت علاوة بدل

العلف ستضاعف لقواد السرايا ، كما كان يشاع . فأجاب الأمير أندرو عن ذلك مبتسماً أنه لم يكن في وسعه أن يدلى برأى فى مثل هذا الأمر الحكومى الهام . وضحك بوريس بمرح .

واستطرد الأمير أندرو ملتفتاً إلى بوريس :

ـ أما عن موضوعك ، فسوف نتحدث فيه فيما بعد .

ونظر إلى روستوف .

ــ تعال إلىّ بعد الاستعراض ، وسنفعل ما فى وسعنا .

وبعد أن أجال الأمير أندرو بصره فى الغرفة ، التفت إلى روستوف ، وقد تغيرت حاله الآن من ارتباك صبيانى لايقهر ، إلى غضب لم يشأ أن ينزل عن عليائه فيجعل إليه بالا ، وقال :

ــ أظنك كنت تتكلم عن مسألة شون جرابين ؟ أكنت هناك ؟

فقال روستوف مغضباً ، كما لو كان ينوى أن يهين الياور :

ــ كنت هناك .

فلاحظ بولكونسكى ما كانت عليه حال الفارس ، وكان فى ذلك ما يسليه . وقال بابتسامة فيها زراية هينة :

ــ نعم ، هناك حكايات كثيرة تروى الآن عن هذه المسألة .

فردد روستوف بصوت مرتفع ، وهو ينظر بعينين قد اشتعل فيهما الحنق فجأة ، إلى بوريس حيناً ، وحيناً إلى بولكونسكى :

ــ نعم ، حكايات ..! حكايات كثيرة ..! ولكن حكاياتنا هى حكايات رجال كانوا تحت نيران العدو .. ! ولحكاياتنا شىء من الوزن ، فليست مثل حكايات أولئك الناس فى هيئة الأركان الذين حصلوا على جوائز ومكافآت دون أن يفعلوا شيئا ..!

فقال الأمير بولكونسكى ، بابتسامة هادئة لطيفة بالغة اللطف :

ـ وأنت تتصورنى واحداً من هؤلاء ؟

فامتزج فى روح روستوف ، عندئذ ، شعور غريب من الغيظ ومن الاحترام ، بازاء ذلك الرجل المالك زمام نفسه ، وقال :

— لست أتكلم عنك ، فما أعرفك ، وما أريد أن أفعل ، بصراحة . إنما أتكلم عن الأركان بصفة عامة .

فقاطعه الأمير أندرو ، بلهجة من السيطرة الهادئة :

— وسأقول لك هذا : أنت تريد أن تهينني ، وأنى على استعداد لأن أوافقك على سهولة ذلك جداً ، لو لم يكن عندك قدر كاف من احترام النفس ، ولكن سلم معى بأن الوقت والمكان قد أسيء اختيارهما جداً لذلك . فبعد يوم أو يومين سنشترك فى مبارزة أكبر وأخطر ، فضلا عن أن درو بيتسكوى ، وهو يقول أنه صديقك من قديم ، لا ذنب له إطلاقاً أن وجهى كان من سوء حظه أن لم يعجبك .

ثم قال وهو ينهض :

— ومع ذلك ، فأنت تعرف اسمى ، وتعرف أين تجدنى . ولكن لاتنسى أننى لا أرى إهانة ما قد نالتنى أو نالتك ، ونصيحتى لك ، من رجل يكبرك سنا ، أن تسقط المسألة . حسنا ، سأنتظرك يادروبيتسكوى ، يوم الجمعة ، بعد الاستعراض .

وهتف الأمير أندرو وهو ينحنى لكليهما :

— أوريڤوار ..!

وخرج .

ولم يفكر روستوف فيم كان ينبغى له أن يقول إلا بعد أن خرج الأمير أندرو . فزاد من غضبه أنه أغفل قوله . وطلب حصانه على الفور ، وودع بوريس وداعاً لاحرارة فيه ، وركب عائداً . كان السؤال الذى يلح عليه ويكربه طيلة الطريق ما إذا كان ينبغى عليه أن يذهب للقيادة العامة من الغد فيتحدى ذلك الياور التكلف المغرور ، أو يدع المسألة

تسقط حقاً . وكان يفكر ، بغضب ، فى سروره برؤية خوف ذلك الرجل الصغير الرقيق البنية ، على كبريائه ، عند ما يسدد إليه مسدسه ، ثم أحس بدهشة ، أنه لايجب أن يتخذ صديقاً ، من كل الرجال الذين عرفهم ، بقدر ما يجب أن يتخذ صديقاً من ذلك الياور الذى يعقته كل هذا المقت .

الفصل الثامن

أقيم ، فى غداة اليوم الذى ذهب فيه روستوف ليرى بوريس ، استعراض للقوات النمسوية والروسية ، سواء منها ما وصل حديثا من روسيا ، أو ما اشترك فى الحملة تحت قيادة كوتوزوف . وقام الأمبراطوران ، الامبراطور الروسى ووريثه ولى العهد ، والامبراطور النمسوى مع الأرشيدوق ، بالتفتيش على جيش الحلفاء المكون من ثمانين ألف جندى .

ومنذ بكرة الصباح كانت القوات ، أنيقة نظيفة ، تتحرك وتقوم بتشكيلاتها فى الساحة أمام القلعة . كانت آلاف الأقدام وحراب البنادق تتحرك تارة وتقف ، على أوامر الضباط ، وتدور وأعلامها تخفق فى الهواء ، وتتشكل بين الحين والحين على هيئة طوابير ، وتدور حول حشود مماثلة من المشاة فى حلل متباينة ، وتارة أخرى يسمع وقع السنابك المنتظم ، وصلصلة الفرسان فى بهرج زينتهم ، وهم يرتدون حللا موشاة ، زرقاء وحمراء وخضراء ، وفى مقدمتهم رجال الموسيقى ، بأناقتهم ، على جياد سوداء وصهباء وغبراء ، ثم تأتى المدفعية تارة أخرى ، وقد انبسطت صفوفها فى قرقعة نحاسية من المدافع المصقولة اللامعة التى تهتز على عربات المدافع ، ورائحة عصى إشعال المدافع ، وتزحف المدفعية بين المشاة والفرسان ، وتأخذ مواقعها المرسومة . لم يكن الجنرالات وحدهم ، فى حلل الاستعراض الكاملة ، وقد شدوا بطونهم حتى الغاية ، سواء كانت متهضمة أو متكرشة ، وانحشرت رقابهم الحمراء فى ياقاتهم الصلبة القائمة ، وارتدوا الأوشحة وكل

نياشينهم ، ولم يكن الضباط وحدهم ، بأناقتهم ودهاناتهم ، بل كان كل جندى بوجهه المغسول الحليق ، وأسلحته التى بلغت الغاية من النظافة والصقال ، وكانت الجياد جميعاً قد مُسحت ودعكت حتى لمعت جلودها كالحرير، ونامت كل شعرة فى معرفاتها الناعمة ، كانوا جميعاً يحسون أن ليس ذلك الذى يقع بالأمر الهين ، بل أنه شىء خطير رصين . كان كل جنرال ، وكل جندى يحس بتفاهة شأنه ، ويدرك أنه ليس إلا قطرة فى ذلك الأقيانوس من الرجال ، لكنه يحس ، فى الوقت عينه ، بقوته ، كجزء من ذلك الكل الهائل العظيم .

ومنذ بكرة الصباح بدأت الجهود وأوجه النشاط الشاقة تبذل ، وبلغ كل شىء غايته من النظام فى العاشرة . وصفت الصفوف على الساحة الشاسعة وامتد الجيش بأكمله على ثلاثة خطوط : فى المقدمة الفرسان ، وخلفهم المدفعية ، ومن ورائها المشاة .

وترك بين كل خطين من القوات فراغ كفراغ الشارع . وكانت أجزاء ذلك الجيش الثلاثة تمتاز عن بعضها البعض امتيازاً حاد الوضوح : جيش كوتوزوف المحارب ، وعلى الجناح من مقدمته فرسان بافلوجراد ، وأولئك الذين وصلوا حديثا من روسيا ، سواءً منهم الحرس وفرق الجبهة ، ثم القوات النمسوية - لكنهم كانوا يقفون جميعا فى نفس الخطوط ، تحت قيادة واحدة ، وفى نظام متماثل .

وسرت همسة انفعال كالريح تسرى فى ورق الشجر : إنهم قادمون . إنهم قادمون ..! وسمعت أصوات مضطربة قلقة ، وسرت فى القوات بأسرها حركة استعداد نهائى .

ورؤيت جماعة تدنو من ناحية أولمتز ، أمامهم . وفى تلك اللحظة ، وعلى الرغم من سكون الريح فى ذلك اليوم ، هبت ريح هينة على الجيش فخفقت هوناً بأعلام الرماح الصغيرة، واهتزت الألوية المبسوطة على صواريها.

وبدا كأن الجيش نفسه ، بتلك الحركة الخفيفة ، يعبّر عن فرحته لمقدم الامبراطورين . وسمع صوتٌ واحد يهتف :

— أماماً انظر ..!

ثم رددت ذلك أصوات أخرى من جوانب مختلفة ، كأنه هتاف الديكة عند مشرق الشمس ، ثم ساد الصمت .

ولم يكن يسمع في السكون الذى يشبه سكينة الموت إلا وقع سنابك خيل مرافقى الامبراطورين . وركب الامبراطوران إلى الجناح وعزفت أبواق فرقة الفرسان الأولى مارش القائد . وبدا كأن من يعزف ليس عازفى الأبواق ، بل كأن الجيش نفسه ، فى بهجته بمقدم الامبراطورين ، قد انفجر عازفاً بالموسيقى من تلقاء نفسه . ولم يكن يسمع بوضوح فى وسط هذه الأصوات ، إلا صوت الامبراطور ألكسندر ، فتيًّا عطوفا . وقال كلمات التحية ، فزأرت الفرقة الأولى راعدة : « هورّاه ..! » وبلغ من فرح هذه الهتفة ، ودويّها ، واستمرارها أن هال الجنود أنفسهم احتشادهم وعِظَمَ القوة التى كانت فيهم .

كان روستوف يقف فى الصفوف الأولى من جيش كوتوزوف ، وقد اقترب منها القيصر أول ما اقترب ، فخامره نفس الإحساس الذى خالط نفس كل جندى فى ذلك الجيش : إحساسٌ بنسيان الذات ، ووعىٌ فيه كبرياء بالقوة وعِظَم الحوْل ، وصبوٌّ مشبوب نحو ذلك الذى كان مصدر هذا الظفر .

أحس أنه ، بكلمة واحدة من ذلك الرجل ، ليجتازنّ النار والماء ، كلُّ هذا الحشد الهائل ، وليس هو بنفسه ، إلا ذرة منه لاخطر فيها ، ويقارف الجريمة ، ويموت ، أو ليأتيّن أفعالا من أسمى البطولات ، ومن ثمّ لم يملك إلاأن يرتجف ، ويقف قلبه عن الحركة ، لدنوّ هذه الكلمة وشيكا .

وأرعدت فرقة تلوالأخرى من كل الجوانب : هورّاه . ! هورّاه ..!

هوراه .! ، تحيي القيصر بنغمات المارش ، ثم تأتى « هوراه.! هوراه.! » ثانية ، تتزايد قوةً ، وامتلاء ، وتمتزج فى زئير يصمّ الأسماع .

وكانت كل فرقة تبدو ، فى صمتها وسكونها بلاحراك ، جثة لا حياة فيها حتى يصل إليهـا القيصر ، وما أن يبلغها حتى تدب فيها الحيـاة ، ويتصلّ رعدها بهزيم رعد الصف الذى مرّ به من قبل . وفى وسط الهزيم المخوف الذى يصمّ الأسماع : من هـذه الأصوات ، وبين الحشود المصفوفة من القوات التى تقف بلا حراك ، كأنمـا استحالت حجراً ، كان يمر مشـاة الراكبين الذين يتـكون منهم مرافقو الامبراطوريين ، بلا احتفال ، وإن كان ذلك فى نظام متناسق ، وفى حرية وطلاقة على الأخص ، وأمامهم رجلان : الإمبراطوران . وكان يتركز عليهم انتباه كل هذا الحشد من الرجال ، انتباها لا يتوزعه شيء آخر ، مشبوبَ الحدّة والتوهج .

كان الامبراطور ألـكسندر الشاب الوسيم ، فى حلة حرس الفرسان ، يرتدى قبعة قائمة يقع طرفاها العاليان إلى الأمام وإلى الخلف ، بوجهه اللطيف وصوته الرّنان على غير ارتفاع ، يجتذب انتباه الجميع .

لم يكن روستوف على بعيد من عازفى الأبواق ، وقد تعرّف على القيصر ، فقد وقع عليه بنظره الحـاد ، وأخذ يرقب مقدمه . فلما كان على عشرين خطوة منه ، وكان فى وسـع نيـكولاس أن يتبين بوضوح كل تفاصيل وجه الفتى الوسيم السعيد ، خامره حسٌ بالحنو والنشوة ، لم يعرف له من قبل مثيلا . وبدت له كل قسمَـة ، وكل حركة من قسمات القيصر وحركاته آخذةً باللب .

ووقف القيصر أمام فرسـان بافلوجراد ، وقال شيئاً بالفرنسـية للامبراطور النمسوى ، وابتسم .

فلما رأى روستوف هذه الابتسامة ، ابتسم عن غير عمد هو نفسه ، - وأحسّ فيضاً من الحب لملـكه ، أقوى وأعمق ، يغمر نفسه . وتاق لو أبدى

هذا الحب على نحوٍ ما ، ولمعرفته أن ذلك كان مستحيلا ، أوشك على البكاء .

نادى القيصر كولونيل الفرقة ، وقال له بضع كلمات

وخطر لروستوف :

— يا إلهى ، ماذا يحدث لى ، لو أن الامبراطور كلمنى ؟. أموت من السعادة ..!

ووجه القيصر الحديث للضباط أيضاً :

— أشكركم جميعاً ياسادة ، أشكركم من كل قلبى .

وكانت كل كلمة ، عند روستوف ، كأنها صوت من السماء . شدّ ما كان يسعده أن يموت ، على الفور ، فى سبيل قيصره ..!

— لقد حصلتم على ألوية سان چورچ ، وسوف تكونون جديرين بها .

ففكر روستوف :

— أوه .. أن أموت ، أموت فى سبيله ..!

وقال القيصر شيئاً بعد ذلك لم يسمعه روستوف ، وشدّ الجنود صدورهم إلى غاية سعتها ، هاتفين : هورّاه ..!

وانحنى روستوف كذلك على سرجه ، وهتف : هورّاه ..! بكل ما يسعه من قوة ، وهو يحس أنه يودّ لو آذى نفسه بتلك الصيحة ، لمجرد أن يفصح عن نشوته وجذله ملء الافصاح .

وقف القيصر بضع لحظات أمام الفرسان ، كما لو كان غير مستقر العزم .

وفكر روستوف :

— كيف يمكن أن يكون الامبراطور غير مستقر العزم ؟

على أن هذا التردد نفسه بدا له جليلا وآسراً ، ككل ما يفعل القيصر .

ولم يدم التردد إلا لحظة واحدة ، ومسّت قدم القيصر ، فى الحذاء العالى الضيق المدبب ، الذى كان زياً سائداً فى ذلك العهد ، وسط الفَرَس الصهباء القصيرة الذيل التى كان يركبها ، وجمعت يده ، فى قفازها الأبيض ،

العنان ، وتحرك يصاحبه بحر يتموج فى غير نظام من الياورين . وركب بعيداً ، بعيداً ، ووقف عند الفرق الأخرى ، حتى لم يعد يرى روستوف إلا الريش الأبيض فى قبعتــه ، من وســط المرافقين الذين يحيطون بالامبراطورين .

ولاحظ روستوف أن بولــكونسكى كان من بين السادة المرافقين ، جالساً على حصانه باسترخاء وفى غير احتفال . وتذكر روستوف شحانهما بالأمس ، وثارت مسألة ما إذا كان ينبغى أو لا ينبغى ، عليه أن يتحدى بولــكونسكى ، وكان يفــكر الآن :

— بالطبع لا ..! أجدير بهذا أن يفــكر المرء فيه ، أو يتكلم عنه فى مثل هذه اللحظة ؟ فى لحظة مثل هذا الحب ، وهذه النشوة ، وهذه التضحية بالنفس ، فيم تهم كل مشاحناتنا وإهاناتنا ؟ إننى الآن أحب الناس جميعاً وأغفر لهم .

ولما مر الامبراطور بكل الفرق تقريبا ، بدأت القوات تمشى فى استعراض الاحتفال أمامه . وركب روستوف أيضا ماراً به على «بدوى» الذى اشتراه حديثا من دينيزوف ، فى مؤخرة سريته ، أى وحده ، وعلى مشهد من الامبراطور بوضوح .

وقبل أن يصل إليه روستوف — وقد كان فارساً بارعاً ، همز جواده مرتين ، ونجح فى أن يجعله يسير خبباً ، متباهياً . شأنه إذا هاجه الانفعال ، وحتى « بدوى » خطمه المرغى على صدره ، وقد مد ذيله ، كما لو كان يحس كذلك عين الامبراطور عليه ، ومر أمامه مهيباً فخماً ، يرفع ساقيه بحركة رشيقة عاليه ، كما لو كان يطير فى الهواء ، دون أن يلمس الأرض .

ومر روستوف نفسه أمام الامبراطور ، ساقاه مدفوعتان إلى الخلف ، وبطنه مشدودة ، يحس نفسه وحصانه شيئاً واحداً ، بوجه عابس يفيض غبطة «كالشيطان نفسه» ، كما قال دينيزوف .

فقال الامبراطور :

— أولاد مدهشون ، أولئك الباڤلوجراد ..!

وخطر لروستوف :

— يا إلهى ، كم يسعدنى لو طلب منى أن أثب إلى النار هذه الساعة ..!

وعندما انتهى الاستعراض اجتمع الضباط القادمون حديثاً ، وضباط كوتوزوف أيضاً ، طوائف وزُمَراً ، وطفقوا يتكلمون عن المكافآت ، وعن النمسويين وحللهم ، وعن خطوطهم ، وعن بونابرت ، وسوء مصيره الآن ، وبخاصة إذا وصلت فرقة إسّين ووقفت بروسيا إلى جانبنا .

على أن الحديث كان أساساً ، فى كل جماعة ، يدور عن الامبراطور ألكسندر . وكانت كل كلمة وكل حركة ندت عنه موضع وصفٍ نشوان .

لم يكن عندهم جميعاً إلا رغبة واحدة : أن يتقدموا بأسرع ما فى الوسع ، ضد العدو ، تحت قيادة الامبراطور . فتحت قيادة الامبراطور نفسه لم يكونوا ليعوزهم النصر على أى شخص ، أياً كان ، ذلك ما كان يفكر فيه روستوف ، ومعظم الضباط ، بعد الاستعراض .

كانوا جميعاً ، عندئذ ، أكثر ثقة بالنصر منهم لو كانوا قد كسبوا معركتين متعاقبتين .

الفصل التاسع

ركب بوريس ، فى غداة الاستعراض ، وقد ارتدى أحسن حلله ، وصاحبته أحسن أمانىّ زميله بيرج فى النُّجح والتوفيق ، واتجه إلى أولمتز ليرى بولكونسكى ، وفى رغبته أن يفيد من عطفه عليه بالودّ ، وأن يحصل لنفسه على أفضل ما يستطيع من منصب — ويؤثر أن يكون ذلك ياوراً لشخصية هامة ما ، وهو منصب فى الجيش كان يبدو له على أكبر قدر من الجاذبية .

كان يتأمل أنه « حسن جداً لروستوف الذى يرسل إليه أبوه عشرة آلاف روبل مرة واحدة ، أن يتكلم عن رغبته فى ألا يعنو لأحد ، ولا يغدو خادماً لأحد ، أما أنا فليس لى إلا ذكائى ، وعلىّ أن أكوّن مستقبلى ، ولا يجوز لى أن أفقد فرصة ، بل علىّ أفيد من كل الفرص ..! »

لم يجد الأمير أندرو فى أولمتز يومها ، لكن مظهر البلدة التى كانت تقع فيها القيادة العامة والسلك الديبلوماسى ، ويعيش فيها الامبراطوران وعائلتاهما ، ومرافقوهما ، وحاشيتاهما ، لم يفعل إلا أن عزز رغبته فى أن ينتمى إلى هذا العالم الأرقى .

لم يكن يعرف أحداً ، وعلى الرغم من حلته الأنيقة فى زى الحرس ، فقد كانت كل هذه الشخصيات الرفيعة التى تمر به فى الشوارع ، فى عرباتهم الأنيقة ، وريشهم وشرائطهم ونياشينهم ، سواء كانوا من رجال البلاط أو من العسكريين ، يبدون فوقه بقدر لا يقاس ، وهو ضابط لاخطر له من الحرس ، وأنهم لم يكونوا ليرغبوا فى أن يحسوا بوجوده ، بل لم يكونوا ليستطيعوا ذاك . وفى مقر القائد العام ، كوتوزوف ، حيث سأل عن بولكونسكى ، كان الياوران جميعا ، بل جنود المراسلة ينظرون إليه كما لو كانوا يريدون أن يورثوه إحساسا بأن عدداً كبيراً من أمثاله من الضباط يفدون دائما هناك ، وأنهم جميعاً قد ضجروا منهم أشد الضجر . وعلى الرغم من ذلك ، بل وبسبب ذلك ، ذهب فى اليوم التالى ، الخامس عشر من نوفمبر ، إلى أولمتز ، بعد الغداء ، ودخل البيت الذى يشغله كوتوزوف وسأل عن بولكونسكى . كان الأمير أندرو موجوداً ، وأدخل بوريس إلى قاعة كبيرة ، لعلها كانت تستخدم فيما قبل ، فى الرقص ، لكنها الآن قد قامت فيها خمس سرر ، وأثاث من شتى الضروب ، مائدة ، وكراسى ، وبيانو . وكان هناك ياور ، أقربهم إلى الباب ، يجلس إلى مائدة فى عباءة فارسية ، يكتب . وآخر هو نسفيتسكى البدين المحمرّ الوجه ، ينام على

سرير واضعاً يديه تحت رأسه ، ويضحك مع ضابط جلس بجانبه . وثالث يعزف ڤالسا من ڤيينا على البيانو ، بينما يرقد رابع على البيانو ، يغني نغمة الڤالس . لم يكن بولـكونسكي هناك ، ولم يغير أحد من هؤلاء السادة وضعه لمرأى بوريس . وكان ذلك الذي يكتب ، وقد وجه إليه بوريس الخطاب ، قد استدار في حنق وقال له أن بولـكونسكي كان في الخدمة ، وأنه ينبغي أن يمر من البـاب الأيسر إلى حجرة الاستقبال إن كان يريد رؤيته فشكره بوريس وذهب إلى حجرة الاستقبال ، حيث وجد نحواً من عشرة ضباط وچنرالات .

وعند ما دخل ، كان الأمير بولـكونسكي ، مسبل العينين بازدراء ، بذلك التعبير الخاص عن الكلال المؤدب الذي يقول بوضوح : « لو لم يكن واجبي يقتضيني ذلك لما كلمتك لحظة واحدة . » ، يصغي إلى چنرال روسي عجوز موشى بالنياشين ، يقف منتصب القامة جداً يوشك أن يشب على أطراف أصابعه ، وعلى وجهه المحتقن تعبير الجندي الخانع ، وهو يدلي بتقرير عن شيء ما .

قال الأمير أندرو للچنرال ، بالروسية ، وهو يتكلم بالنبرة الفرنسية التي يتخذها إذا أراد أن يتكلم بازدراء :

— حسنا جداً إذن ، تفضل بالانتظار .

فلما رأى بوريس لم يلق بالا إلى الچنرال الذي جرى يلحقه ويتضرع إليه أن يسمع المزيد ، وأومأ اليه ، والتفت إليه بابتسامة مرحبة .

في تلك اللحظة ، أيقن بوريس ما كان قد استنبطه من قبل ، أنه كان يوجد بالجيش ، فضلا عن التبعية والنظام اللذين ينص عليهما القانون العسكري ، واللذين كان يعرفهما هو وغيره في الفرقة ، تبعية أخرى أهم وأخطر وزنا ، هي التي جعلت هـذا الچنرال المحتقن الوجه الوثيق الرباط ، ينتظر باحترام ، بينما يختـار الـكابتن الأمير أندرو ، لمجرد الرغبة ، أن يثرثر مع اللازم دروبيتسكوي . وزاد عزم بوريس ،

أكثر من أى وقت آخر ، على أن يقوم بعمله فى المستقبل ، لا وفقاً للقانون المكتوب ، بل وفقا لهذا القانون غير المكتوب . وأحس الآن أنه لمجرد توصية قدمت إلى الأمير أندرو ، فقد ارتفع من الآن عن الجنرال الذى كان يملك ، فى الجبهة ، أن يلغيه إلغاءً ، وهو الملازم فى الحرس . أقبل عليه الأمير أندرو وهز يده :

— أنا آسف جداً لأنك لم تجدنى بالأمس . كنت أدور مع الألمان طول النهار . ذهبنا مع ڤيروتر لنمسح المواقع . وعندما يبدأ الألمان فى العمل بدقة فلا نهاية لذلك أبداً ...!

فابتسم بوريس ، كما لو كان يفهم مايلمح إليه الأمير أندرو ، فهو شىء ذائع معروف . وإن كانت تلك المرة الأولى التى يسمع فيها اسم ڤيروتر ، بل لفظة « مواقع » .

— حسناً يا صاحبى العزيز ، فأنت ما تزال تريد أن تكون ياوراً ؟ كنت أفكر فى شأنك .

— نعم ، كنت أفكر —

ولم يملك بوريس إلا أن يتضرج خجلا ، لسبب ما .

— أن أسأل القائد العام . فقد تلقى خطاباً عنى من الأمير كوراچين . إنما كنت أريد أن أسأل ، لأنى أخشى ألا يشترك الحرس فى المعركة .

كما لو كان يعتذر .

فأجاب الأمير أندرو :

— حسناً ، حسناً ، سنتكلم فى ذلك . دعنى فقط أبلغ عن مهمة هذا السيد ، وسأكون تحت تصرفك .

وبينما ذهب الأمير أندرو ليبلغ عن مهمة الجنرال المحتقن الوجه ، نظر ذلك السيد ، وواضح أنه لم يكن يشارك بوريس تصوره عن مزايا قانون التبعية غير المكتوب ، إلى الملازم المدعى الذى حال دونه وأن يكمل

ما كان عليه أن يقول للياور ، نظـرة من الثبات حتى أورثت بوريس قلقا . فأشاح عنه ، وانتظر عودة الأمير أندرو ، نافد الصبر ، من غرفة القائد العام .

قال الأمير أندرو عندما ذهب إلى الغرفة الـكبيرة حيث يوجد البيانو :

— أنت ترى يا صاحبي العزيز ، كنت أفـكر فى شأنك . لا جدوى من ذهابك للقائد العام . سيقول لك كلاماً لطيفاً كثيراً . ويدعوك إلى الغداء — ففكر بوريس : « ليس فى ذلك ضير من ناحية القانون غير المـكتوب » — وإن كان لن ينجم عن ذلك أكثر من هذا . فسوف تتكون منا قريباً كتيبة كاملة منا نحن المعاونين والياورين ..! ولـكن هاك ما سنفعل : لى صديق مخلص ، چنرال ، وشخص مدهش ، هو الأمير دولجوريكوف . وعلى أنك قد لا تعرف ما سأقول ، فالواقع أن كوتوزوف وهيئة أركان حربه ، ونحن جميعا لا نساوى شيئا . فكل شىء الآن يتركز حول الامبراطور . فسنذهب إذن إلى دولجوريكوف ، وعلىّ أن أذهب إليه على أى حال ، وقد حدثته بالفعل عنك . وسنرى ما إذا كان يستطيع أن يلحقك بنفسه ، أو يجد مكانا لك أقرب إلى الشمس .

كان الأمير أندرو يصبح دائما فطنا بشكل خاص ، عندما كان عليه أن يوّجه شابا ويعينه على النجاح فى المجتمع . فتحت غطاء الحصول على مثل هذا العون لشخص آخر ، وما كان ليقبله أبداً لنفسه ، عن كبرياء ، كان دائما يتصل بالأوساط التي تضفى وتمنح مثل هذا العَـوْن ، والتي كانت تجتذبه إليها . وقد عنى ، عن طواعية جداً ، بقضية بوريس ، وذهب معه إلى دولجوريكوف .

كان المساء قد أوغل عندما دخلا القصر الذى يشغله الامبراطوران وحاشيتهما فى أولمتز .

وقد كان عقد فى نفس اليوم مجلس حرب اشترك فيه كل أعضاء مجلس الحرب الأعلى النمسوى ، والامبراطوران كلاهما . وقد تقرر فى ذلك المجلس ، على عكس آراء الجنرالين العجوزين كوتوزوف والأمير شوارتزنبرج ، أن يبدأ الزحف على الفور ، ويبدأ القتال مع بوناپرت . وكان مجلس الحرب قد انفض للتو ، عند ما وصل الأمير أندرو يصاحبه بوريس ، إلى القصر ، بحثا عن دولجوريكوف . وكان الجميع ، فى القيادة العامة ، مازالوا تحت أثر المجلس المنعقد فى ذلك اليوم ، حيث انتصر حزب الشبان . وكانت أصوات أولئك الذين أشاروا بالتأخر ، ونصحوا بانتظار شىء آخر قبل الزحف ، قد أخرست كل الخرس ، ودحضت حججهم بالأدلة القاطعة على مزايا الهجوم ، حتى بدا أن ما كان موضع البحث فى المجلس — الموقعة القادمة والانتصار الذى سوف ينجم عنها بالتأكيد — لم يكن فى المستقبل ، بل كان فى الماضى . كانت كل الميزات إلى جانبنا . كانت قواتنا الهائلة ، وهى أكثر تفوقا من قوات نابليون بلا شك ، مركزة فى مكان واحد ، وكانت الجنود قد ألهمها وجود الأمبراطور بالشجاعة واللهفة إلى القتال .

وكان الموقع الاستراتيجى الذى ستدور فيه العمليات معروفا ، بكل تفاصيله ، للجنرال النمسوى ڤيروتر ، كان من الصدف السعيدة أن الجيش النمسوى قد قام بمناوراته فى السنة السابقة فى نفس الميادين التي كان على الفرنسيين أن يقاتلوا فيها ، وكانت المواقع المجاورة معروفة وموضحة بكل تفاصيلها على الخريطة ، وكان بوناپرت موهنا فيما هو واضح ، وغير مقبل على تحمل شىء .

وكان دولجوريكوف ، وهو من أشد أنصار الهجوم حماسا ، قد عاد للتو من المجلس ، متعبا ومرهقا ، وإن كان متلهفا وفخورا بالنصر الذى ظفر به . قدم الأمير أندرو وليه ، ولكن الأمير دولجوريكوف ضغط

يده مؤدبا وحازما ، ولم يقل له شيئا ، وكان من الواضح أنه يعييه كتمان الأفكار التي تسود ذهنه فى تلك اللحظة ، فقال للأمير أندرو بالفرنسية :

— آه يا صاحبي العزيز ، يالها من معركة قد كسبناها ..! عسى يشاء الله أن المعركة التى سوف تنجم عنها تـكون مظفرة بهذا القدر ..!

ثم قال بغتة ، بشغف :

— على أننى ، ياصاحبي العزيز ، يجب أن أعترف بأننى كنت جائراً على النمسويين ، وعلى ڤيروتر بالأخص . فيالها من دقة ، ويا له من ضبط ، ويالها من معرفة بالأرض . وبصيرة بكل احتمال وكل إمكانية ، حتى أصغر التفاصيل ..! لا صاحبي العزيز ، لا يمكن تصور ظروف أفضل من ظروفنا الراهنة . هذا التوفيق بين الدقة عند النمسويين والبسالة عند الروس — ماذا يمكن أن نرغب فى أفضل من ذلك ؟

فسأل بولـكونسكى :

— فقد تقرر الهجوم إذن قطعاً ؟

— وأنت تعرف يا صاحبي العزيز ، يلوح لى أن بوناپرت قد فقد بالتأكيد مقدرته على التفـكير . أنت تعرف أنه قد جاء منه خطابٌ اليوم للأمبراطور .

وابتسم دولجوريكوف ابتسامة لها دلالتها .

فسأل بولـكونسكى :

— أحقٌ هذا ؟ وماذا يقول ؟

— ماذا بوسعه أن يقول ؟ ترا ـ تا ـ تا .. وهلمّ جرا .. حتى يكسب الوقت ، لا لشيء آخر . إنه فى إيدينا ، أقول لك ، هذا مؤكد ..!

واستطرد ، بضحكة مباغتة دمثة :

— ولـكن أشد شيء مدعاة للتسلية أننا لم نستطع أن نفـكّر كيف يكون عنوان الرد ! فإن لم يكن بعنوان «القنصل» ، ولا «الامبراطور»

بالطبع ، فقد بدا له أنه ينبغى أن يكون « الجنرال بونابرت » .

فقال بولكونسكى :

— ولكن هناك فرقاً بين ألا يُعترف به امبراطوراً ، وأن يدعى الجنرال بونابرت .

فقاطعه دولجوريكوف بسرعة ، ضاحكا :

— بالضبط . أنت تعرف بيليبين ، إنه فتى فى غاية الذكاء ، وقد اقترح أن نوجه إليه الخطاب : « المغتصب وعدوّ الإنسانية » .

وضحك دولجوريكوف مرحاً .

قال بولكونسكى :

— هذا فحسب ؟.

— ومع ذلك فقد كان بيليبين هو الذى وقع على أسلوب لائق للخطاب . إنه فتى ذكى حكيم .

— وما ذاك ؟

— إلى رئيس الحكومة الفرنسية ..

وقال بالفرنسية ، فى ارتياح رصين :

— إلى رئيس الحكومة الفرنسية ، حسن ، أليس كذلك ؟

قال بولكونسكى :

— نعم ، لكنه لن يرضى عن ذلك أبداً .

— أوه نعم ، أبداً ..! إن أخى يعرفه ، تغدّى معه — الامبراطور الحالى — أكثر من مرة ، فى باريس ، وهو يقول لى أنه لم يلق أبداً دبلوماسياً أشد منه دهاءً وخبثاً — أنت تعرف ، مزيج من المهارة الفرنسية والتمثيل الإيطالى..! أتعرف الحكاية التى تروى عنه والكونت ماركوف؟ كان الكونت ماركوف هو الرجل الوحيد الذى يعرف كيف يعالجه . أتعرف حكاية المنديل ..! إنها حكاية ممتعة ..!

وأخذ دولجوريكوف ، يثرثره ، وهو يلتفت تارة إلى بوريس وتارة إلى الأمير أندرو ، يروى كيف أراد بونابرت مرة أن يمتحن ماركوف ، سفيرنا ، فأسقط منديلاً عن عمد أمامه ، ووقف ينظر إلى ماركوف ، فى أنتظار أن يلتقطه له ماركوف ، على الأرجح ، وكيف أسقط ماركوف منديله على الفور بجانبه ، ثم التقطه دون أن يمسّ منديل بونابرت .

قال بولكونسكى :

— هذا ممتع ..! لكنى كنت أتيت إليك ، أيها الأمير ، بالتماسٍ بالنيابة عن هذا الشاب ، أنت ترى ...

على أنه قبل أن يستطيع الأمير أندرو أن يكمل ما بدأ يقول ، جاء ياور يدعو دولجوريكوف إلى الامبراطور .

قال دولجوريكوف ، وهو ينهض عجِلاً ، ويضغط يدى الأمير أندرو وبوريس :

— أوه ، يا له من إزعاج . أنت تعرف أنه يسرنى حداً أن أفعل كل ما فى وسعى لك ولهذا الفتى العزيز .

وضغط يد الأخير مرة أخرى ، بتعبير عن السماحة الدمثة الصادقة المليئة بالحيوية :

— ولكن هأنت ترى .. مرة أخرى ..!

استثارت بوريس فكرة قربه هذا القرب الوثيق من السلطات العليا فقد كان كذلك يحس نفسه فى تلك اللحظة وكان يدرك أنه هنا على مسيس الصلة بالزنبركات التى كانت تدفع تلك الحركات الهائلة فى الحشد الذى كان يستشعر نفسه فيه ، فى فرقته ، ذرةً دقيقة طائعة لا خطر لها . وتبعا الأمير دولجوريكوف خارجين إلى الممر ، والتقيا برجل يخرج من باب غرفة الامبراطور الذى دخل منه دولجوريكوف ، رجلاً قصير القامة ، يرتدى ملابس مدنية ، ذكى الوجه ، ناتىء الفك نتوءاً حاداً كان يضفى

عليه، دون أن يفسد مظهر وجهه ، حيوية غريبة وسرعة متغيّرة في المظهر. وأومأ هذا الرجل القصير إلى دولجوريكوف كما يومىء إلى صديق حميم ، وحدّق إلى الأمير أندرو بنظرة ملحّة ثابتة هادئة ، وهو يسير نحوه مباشرة ، وواضحٌ أنه ينتظر منه أن ينحنى ، أو يفسح له الطريق . ولم يفعل الأمير أندرو أيهما : وبدت على وجهه نظرة عداء ، فأشاح الآخر ومضى يسير فى جانب الممر .

سأل بوريس :

— مَنْ ذلك ؟

— إنه من أكثر الناس تبرزاً ، وأكثرهم تنميراً — وزير الخارجية ، الأمير آدم تسارتوريسكى .

واستطرد بولكونسكى ، وهو لا يملك أن يكتم تنهدة ، إذ يخرجان من القصر :

— مثل هذا الرجل يقررون مصائر الأمم .

وفى اليوم التالى بدأ الجيش يقوم بحملته ، ولم يستطع بوريس ، حتى موقعة أوسترلتز نفسها ، أن يلتقى لا بالأمير أندرو ، ولا بدولجوريكوف مرة أخرى ، وبقى ، زمناً ، فى فرقة إسمايلوف .

الفصل العاشر

فى فجر السادس عشر من نوفمبر تحركت فصيلة دينيزوف التى كان روستوف ملتحقاً بها ، والتى كانت تابعة لفرقة الأمير باجراتيون ، من البقعة التى أنفقت فيها الليل ، وتقدمت للمعركة ، حسب الخطة الموضوعة ، وبعد أن سارت خلف طوابير أخرى نحواً من فرسخ ، أوقفت على الطريق الرئيسى . ورأى روستوف القوزاق ، ثم الطابورين الأول والثانى من الفرسان ، وكتائب المشاة والمدفعية يمرون ويتقدمون ، ثم يركب الجنرال

باجراتيون والجنرال دولجوريكوف مارين بهما مع مرافقيهم. كانت كل المخاوف التى ساورته قبل المعركة، وقد ساورته الآن كما حدث فيما سبق، وكل صراعه الداخلى ليظهر على تلك المخاوف، وكل أحلامه فى أن يبرّز ويتفوق فارساً صادقاً حقاً فى هذه الموقعة، كلها قد ضاعت. وبقيت فصيلتهم فى الاحتياطى، وقضى نيكولاس روستوف يومه ذاك فى حال كئيبة تعسة. وفى التاسعة صباحاً سمع إطلاق النار فى الأمام، وصيحات هورّاه، ورأى الجرحى يؤتى بهم، لم يكن هناك منهم الكثير، ورأى فى النهاية كيف أُتى بفرقة كاملة من الفرسان الفرنسيين أسرى، تأتى بها سرية من القوزاق. كان واضحاً أن المعركة قد انفضّت، وكان الاشتباك ناجحاً، وإن كان غير كبير. وكان الجنود والضباط العائدون يتحدثون عن نصر باهر، وعن احتلال بلدة فيشاد وأسر فصيلة فرنسية كاملة. وكان النهار مشمساً مشرقاً، بعد صقيع الليل القارّ، وكان سطوع ذلك اليوم البهيج من الخريف يتسق مع أخبار النصر التى لم تكن تسرى بها فحسب حكايات من اشترك فيه، بل ينقله أيضا مظهر الفرحة على وجوه الجنود والضباط والجنرالات والياورين، إذ كانوا يمرّون آتين أو ذاهبين، أمام روستوف. وزادت كآبة روستوف، فقد عانى، فى غير ما طائل، كل التوجس الذى يسبق المعركة، وأنفق ذلك اليوم السعيد خاملا.

هتف به دينيزوف وقد جلس إلى جانب الطريق، ومعه قنينة، وبعض الطعام:

— تعال هنا يا رُستوف. فلنَشْرَب لنُغْرِق أحزاننا ..!

وتجمع الضباط حول دينيزوف، يأكلون ويتحدثون.

صاح أحد الضباط مشيراً إلى فرنسىّ أسير من فرسان «الدراجون» يأتى به اثنان من القوزاق سائراً على قدميه.

— هاك ..! إنهم يأتون بآخر ..!

كانَ أحد القوزاقيين يجر من اللجـام حصانا فرنسيا حسنا أخذه من الأسير .

فهتف دينيزوف بالقوزاقيين :

— بعنا هذا الحصان . !

— إذا أحببت يا صاحب السعادة .. !

فنهض الضباط ووقفوا حول القوزاقيين وأسيرهما . كان الفـارس الفرنسي الزاسياً حدثاً يتكلم الفرنسية بلكنة ألمانية . وكان مبهور النفَس من الانفعال ، محمرّ الوجه ، فلما سمع شيئا من حديث يقال بالفرنسية ، أخذ يتكلم إلى الضباط على الفور ، يخاطب أحدهم تارة ، والآخر تارة . قال أنه لم يكن ليؤخذ أسيراً ، ولم يكن ذلك ذنبه بل ذنب الجاويش الذى أرسله ليستولى على بعض مهمات الخيل ، وإن كان قد قال له أن الروس هناك . وكان يقول عند كل كلمة :

— لا تصيبوا حصاني الصغير بأذى .. !

ويربت على الحصان .

كان من الواضح أنه لم يكن يدرك تماما أين هو . كان يعتذر حيناً عن وقوعه في الأسر ، ثم يخال نفسه حيناً آخر أمام ضباطه ، فيلحّ على الكلام عن اتباعه لنظام الجندية ، وحماسه فى أداء الواجب . وأتى معه ، إلى حرس مؤخرتنا ، بكل ذلك الجو المنعش الذى يسود الجيش الفرنسي ، والذي شدّ ما كان غريبا علينا .

باع القوزاقيان الحصان بقطعتين من الذهب ، ولما كان روستوف أغنى الضباط بعد أن تلقى نقوده ، فقد اشتراه .

قال الألزاسي لروستوف ، بطيبة قلب ، عند ما تسلّم الفارس الحصان :

— لا تصب حصاني الصغير بأذى .. !

فهدأ روستوف من روع الجندى ، وأعطاه نقوداً .

قال القوزاقى وهو يمس ذراع الأسير ليحمله على السير :

— هيا ..! هيا ..!

وسمعت بين الفرسان فجأة صيحة :

— الامبراطور ..! الامبراطور . !

فأخذ الجميع يجرون ويلغطون ، ورأى روستوف عدة فرسان آتين من على الطريق ، وفى قبعاتهم ريش أبيض . وبعد لحظة كان كلٌ فى مكانه ينتظر .

لم يكن روستوف يعرف أو يتذكر كيف جرى إلى مكانه وركب حصانه . وقد امحّى ، للتوّ ، أسفه على أنه لم يكن فى المعركة ، وكآبته وسط أناس قد ضجر بهم . وتلاشت ، للتو ، كل فكرة عنده عن نفسه . وملأته السعادة لقربه من الامبراطور . وأحس أن هذا القرب ، بذاته ، يعوضه عن اليوم الذى ضاع منه . كان سعيدا كعاشق عندما تأتى لحظة اللقاء التى طال الشوق إليها . لم يكن يجسر على النظر حواليه ، ومن غير أن ينظر حواليه ، كان يستشعر ، فى نشوة ، مقدمه .. هو ..! لم يحس ذلك فحسب من وقع سنابك الخيل الدانية ، بل لأنه ، هو ، لما كان يقترب ، كان كل شىء يزداد نصوعاً ، وبهجة ، ومعنى ، وفرحا ، حواليه ، واقتربت من روستوف أكثر فأكثر تلك الشمس تلقى بأشعة من النور الوديع الجليل ، وأحس نفسه تحيط به تلك الأشعة ، وسمع صوته ، هو ، ذلك الصوت العطوف الهادىء الجليل الذى بقدر ما كان بسيطا مع ذلك ..!

وساد صمت رهيب ، كما لو كان ذلك يتفق مع إحساس روستوف .

وسمع فى ذلك السكون صوت الامبراطور متسائلا :

— فرسان بافلوجراد ؟

فأجاب صوت :

— الاحتياطى . يامولاى ..!

صوتٌ إنسانيّ جدا ، بالمقارنة بذلك الصوت الذى قال : « فرسان بافلوجراد ؟» .

فاقترب الامبراطور حتى حاذى روستوف ووقف. كان وجه ألكسندر أروع وسامة ، حتى ، مما كانه منذ ثلاثة أيام فى الاستعراض . كان يستضىء بالمرح والشباب ، بالشباب الغض البرىء ، حتى كان ليوحى بحيوية فتى فى الرابعة عشرة من عمره ، ومع ذلك فقد كان وجه الإمبراطور الجليل . وبينما كانت عينا الامبراطور تجولان بالفصيلة ، تلاقتا ، عرضاً ، بعينى روستوف ، واستقرتا عليهما لحظة لا تزيد عن ثانيتين . وسواءً فهم الامبراطور أو لم يفهم ما كان يعتلج فى روح روستوف — وكان يخال لروستوف أنه يفهم كل شىء — فقد حدقت عيناه الزرقاوان ، على أى حال ، نحواً من ثانيتين ، بوجه روستوف . وكان يتدفق منهما نور وديع رقيق . ثم رفع حاجبيه ، بغتة ، ومس حصانه لجأة بقدمه اليسرى . وانطلق يعدو .

لم يستطع الامبراطور الفتيّ أن يكبح رغبته فى أن يحضر المعركة ، وعلى الرغم من احتجاجات رجال بلاطه ، غادر الصف الثالث ، الذى كان فيه ، فى الثانية عشرة ظهراً ، وانطلق يعدو إلى قوّات الطليعة . وقبل أن يصل إلى الفرسان ، لقيه عدة ضباط من الياوران ، بأنباء النتيجة الموقفة للمعركة .

كانت هذه المعركة التي انحصرت فى أسر فصيلة فرنسية ، ترسم فى صورة نصر باهر على الفرنسيين ، ومن ثم فقد أيقن الامبراطور ، والجيش بأسره ، وبخاصة بينما كان الدخان منعقداً على ساحة القتال ، أن الفرنسيين قد هزموا ، وأنهم كانوا يتقهقرون رغماً منهم وبعد أن مرّ الامبراطور ببضع دقائق ، صدر الأمر إلى فرقة بافلوجراد أن تتقدم . وفى فيشاو نفسها ، وهى بلدة ألمانية صغيرة ، رأى روستوف الامبراطور مرة أخرى . وفى ميدان السوق ، حيث كان إطلاق النار قد اشتد نوعاً قبل وصول

الامبراطور ، كان يرقد كثير من الجنود القتلى والجرحى ، لم يتح الوقت لإبعادهم . وكان الامبراطور، يحدق به مرافقوه من الضباط ورجال البلاط ، يركب فرساً صهباء مجزوزة الذيل، غير تلك التي كان يركبها فى الاستعراض، فانحنى إلى أحد الجانبين ، ووضع عوينة ذهبية إلى عينه ، برشاقة ، ونظر إلى جندى كان يرقد ممدداً ، وعلى رأسه العارية دم . كان الجندى الجريح من القذارة والغلظة ، وكان مثيراً للاشمئزاز ، حتى كان قربه من الامبراطور شيئاً يروع روستوف . ورأى روستوف كيف ارتجفت كتفا الامبراطور ، وهما مدورتان قليلا ، كما لو كانت قد سرت فيهما قشعريرة باردة ، وكيف أخذت قدمه اليسرى تدق على جنب الحصان بالمهماز ، فى حركة متشنجة ، وكيف نظر الحصان المدرَّب حواليه ، دون اهتمام ، ولم يأت بحركة . وترجَّل ياور، فرفع الجندى من تحت ذراعيه ، ليضعه على نقالة أتى بها . وندّ عن الجندى أنين خشن .

فقال الامبراطور ، وواضح أنه يعانى أشد مما يعانى الجندى المحتضر :

— رويداً ، رويداً ..! ألا تستطيعون أن تكونوا أكثر مهلا ..؟

وركب مبتعداً .

ورأى روستوف الدموع تملأ عينى الامبراطور ، وسمعه ، وهو يبتعد ، يقول بالفرنسية لتسارتوريسكى :

— ياللحرب من شىء مروع ، يالها من شىء مروّع ...!

رابطت قوّات الطليعة أمام فيشاو ، على مرأى من خطوط العدوّ الذى كان طيلة النهار يتراجع ، ويسلم الأرض لنا ، عند أهون إطلاق للنيران . وأعلن شكر الامبراطور إلى الطليعة ، ووعدوا بالمكافآت ، وتسلم الجنود نصيبهم من الفودكا مضاعفاً . كانت نيران المواقد تفرقع ، وأغانى العساكر ترن بأصداء أشد مرحاً مما كانت فى الليلة البارحة . واحتفل دينيزوف بترقيته إلى رتبه الماچور ، وكان روستوف قد شرب بمافيه الكفاية من

قبل ، فاقترح فى نهاية الحفل نخب صحة الامبراطور ، قائلا :

— ليس « عاهلنا ، الامبراطور » كما يقولون فى حفلات العشاء الرسمية ، بل «فى صحة عاهلنا ، الرجل العظيم ، الصالح ، الساحر . ا» فلنشرب فى صحته ، ونخب هزيمة الفرنسيين المؤكدة ..!

وقال :

— لو كنا حاربنا من قبل ، ولم ندع الفرنسيين يمرون ، كما حدث فى شون جرابرن ، فما الذى لا نفعله الآن ، وهو فى الجبهة ؟ سنموت فى سبيله جميعا ، بسرور ..! أليس كذلك أيها السادة ؟ لعلنى لا أقول ذلك على وجهه الصحيح ، فقد شربت كثيرا — لكن ذلك ما أحس به وكذلك تفعلون ! فى صحة ألكسندر الأول ..! هورّاه . !

فدوّت أصوات الضباط فى حماس :

— هورّاه .!

وكان كابتن الفرسان العجوز كيرستين ، يهتف بحماس ، فى صدق لا يقل عن صدق روستوف على سنيه العشرين .

فلما أفرغ الضباط أقداحهم ، وحطموها ، ملأ كيرستين غيرها ، ومضى ، وقد خلع سترته ، إلى نيران مواقد الجنود ، والقدح فى يده ، ووقف ، بشاربه الطويل الأشيب ، وصدره الأبيض يبدو من تحت قميصه المفتوح ، فى وقفة جليلة ، على وهج نيران المواقد ، يشوّر بذراعه المرفوعة عاليا .

وهتف بصوته الجسور الرنان ، صوت فارس قديم :

— يا أولاد ..! فى صحة عاهلنا الامبراطور ، ونخب انتصارنا على الأعداء ..! هورّاه ..!

فتجمع الفرسان حوله ، ولبّوا هتفته بصيحات عالية .

وفى آخر الليل ، عندما تفرق الجميع ، ربت دينيزوف بيده القصيرة على كتف صديقه الأثير عنده روستوف وقال :

ـــ لما كان لا يوجد من يقع فى حبها ، فى أثناء الحملة ، فقد وقع فى حب القيصر .

فصاح روستوف :

ـــ دينيزوف، لا تسخر من ذلك..! إنه إحساس سامٍ جميل ، إنه ...

ـــ إنى أصدّق ، إنى أصدق ، يا صديق ، وأشاركك وأوافقك .

ـــ لا ، أنت لا تفهم..!

ونهض روستوف ، وذهب يجول على غير وجه بين نيران المواقد ، يحلم بأية سعادة تكون من حظه لو أنه مات ، لا فى سبيل إنقاذ حياة الامبراطور ، فلم يكن حتى ليجسر على أن يحلم ذاك ، بل لو أنه مات ، ببساطة ، أمام عينه . كان حقاً مشغوفاً بحب القيصر ، وبمجد الجيوش الروسية ، والأمل فى الظفر المقبل . ولم يكن الوحيد الذى كان يخامره هذا الشعور فى أثناء تلك الأيام التى لا تنسى ، قبل معركة أوسترلتز ، كان تسعة أعشار رجال الجيش الروسى عندئذ ، مشغوفين بحب قيصرهم ، وبمجد الجيوش الروسية ، وإن كان ذلك بأقل شبوباً ونشوة من روستوف .

الفصل الحادى عشر

نزل الامبراطور ، فى اليوم التالى ، ببلدة فيشاو . ودعى طبيبه الخاص فيلييين عدة مرات ليفحصه . وذاع الخبر بأن الامبراطور لم يكن فى خير حال ، فى القيادة العامة ، وبين القوات القريبة . لم يتناول شيئاً من طعام، وكان نومه قلقاً فى تلك الليلة ، كما قال أولئك الذين يحيطون به . كان سبب هذا الانحراف ما خلفه ، فى ذهنه الحسّاس ، مرأى القتلى والجرحى من أثر قوى .

وفى مطلع نهار السابع عشر جاء ضابط فرنسى تحت راية الهدنة بطلب مقابلة الامبراطور الروسى ، وأُتى به من مراكزنا الأمامية إلى فيشاو .

كان هذا الضابط هو ساڤارى . وكان الامبراطور قد نام للتوّ ، ومن ثم اضطر ساڤارى للانتظار . وسمح له بمقابلة الامبراطور عند الظهر . وبعد ساعة ، ركب مع دولجوريكوف إلى المركز الأمامى للجيش الفرنسى .

وأشيع أن ساڤارى قد أرسل ليقترح على الامبراطور لقاءً مع ناپليون. ورفض الامبراطور أن يلتقى بناپليون شخصياً ، فكان فى ذلك مدعاة لفرح الجيش كله وفخاره ، وبدلا من ذلك أرسل مع ساڤارى الأمير دولجوريكوف ، القائد المنتصر فى معركة فيشاو ، ليتفاوض مع ناپليون ، إن كانت هذه المفاوضات ، على عكس ما هو منتظر ، تحدوها رغبة حقيقية فى السلام .

وعاد دولجوريكوف قرابة المساء ، ومضى مباشرة إلى القيصر ، وبقى معه وحده فترة طويلة .

وفى الثامن عشر والتاسع عشر من نوفمبر تقدم الجيش مسيرة يومين، وتقهقرت مراكز العدو الأمامية بعد تبادل النيران فترة وجيزة . وبدأ ، فى دوائر الجيش العليا ، مذ ظهر التاسع عشر من نوفمبر ، نشاط كبير ، زاخر بالحيوية والحركة ، واستمر هذا النشاط حتى صباح العشرين ، عند ما وقعت معركة أوسترلتز التى لا تنسى .

كان النشاط ، والحديث الذى يفيض بالحماس ، والجرى هنا وهناك ، وإيفاد الياورين ، محصوراً حتى ظهر التاسع عشر من نوفمبر ، فى مقر الامبراطور . ولكن هذا النشاط بعد ظهر ذلك اليوم امتد إلى مقرّ كوتوزوف، وأركان قواد الخطوط . وعند المساء كان الياورين قد مدّوا هذا النشاط إلى كل أطراف الجيش وأجزائه ، وفى ليلة التاسع عشر إلى العشرين من نوفمبر ، نهضت الثمانون ألف جندى جمعاء لقوات الحلفاء ، من مراقدها ، على طنين الأصوات ، واهتز الجيش ، وبدأ يسير فى حشد هائل طوله ستة أميال .

كان النشاط المركز الذى بدأ فى مقر الامبراطور ذلك الصباح ، فدفع الحركة كلها التى تلت ذلك ، يشبه أولى حركات العجلة الرئيسية فى ساعة برج كبيرة . تتحرك عجلة واحدة ببطء ، فتحرك عجلة أخرى ، وثالثة ، وتأخذ العجلات تدور متزايدة السرعة ، والدوافع والتروس تشتغل والنواقيس تصلصل ، والأرقام تبرز ، والعقارب تتقدم بحركة منتظمة ، نتيجة لكل هذا النشاط

وكما يحدث فى آلية الساعة يحدث بالضبط فى آلية الجهاز الحربى ، والدفعة إذا ما بدأت لابد أن تفضى إلى النتيجة النهائية ، وتظل تلك الأجزاء التى لم تبلغها الدفعة المحركة ، كما يحدث فى آلية الساعة تماماً ، هادئة لا تنبض باهتمام ما ، حتى اللحظة التى تصل إليها الحركة ، وتصر العجلات على محاورها إذ تشتبك التروس بأحدها الآخر ، وتئز البكرات الدوارة من سرعة حركتها ، لكن عجلة مجاورة ما تبقى هادئة لا حراك بها كما لو كانت على استعداد للبقاء على هذا النحو مائة عام ، ولكن تأتيها اللحظة التى تمسك بها الدافعة ، وتلبى العجلة هذا الدفع فتأخذ فى الصريف ، وتلحق بالحركة السائدة التى يتجاوز نطاقها الهدف منها والنتيجة الناجمة عنها .

وكما يحدث فى الساعة ، من أن نتيجة الحركة المعقدة لعجلات وبكرات لا عداد لها هى مجرد حركة بطيئة منتظمة للعقارب التى تبين الزمن ، فان نتيجة كل النشاط الإنسانى المعقد لمائة وستين ألفاً من الروس والفرنسيين — نتيجة كل نزوعاتهم وشهواتهم وانفعالات ندمهم ومذلاتهم وآلامهم وانفجارات كبريائهم وخوفهم وحماسهم — لم تكن إلا هزيمة موقعة أوسترلتز موقعة الثلاثة أباطرة كما تسمى ، أى حركة بطيئة للمقرب على ميناء التاريخ الانسانى .

كان الأمير أندرو فى نوبة الخدمة ذلك اليوم ، وكان فى رفقة القائد العام باستمرار .

وفى السادسة من مساء ذلك اليوم ذهب كوتوزوف إلى مقر الامبراطور ، وبعد أن بقى زمناً وجيزاً مع القيصر ذهب ليرى مارشال البلاط الأكبر، الكونت تولستوى .

وانتهز بولكونسكى الفرصة ليدخل معه ، حتى يقف على بعض دقائق المعركة القادمة ، من دولجوريكوف . كان يحس أن كوتوزوف مضطرب وغير راض عن شىء ما ، وأنهم فى القيادة العامة غير راضين عنه ، وأن الجميع ، فى مقر قيادة الامبراطور كانوا يحدثونه بلهجة شخص يعرف شيئاً لا يعرفه الآخرون : لذلك أراد أن يتحدث إلى دولجوريكوف .

قال دولجوريكوف ، وقد كان يجلس إلى الشاى مع بيليبين :

— حسناً ، كيف أنت يا صاحبى العزيز ؟ الحفلة غداً كيف حال صاحبك العجوز ؟ منحرف المزاج ؟

— لن أقول انه منحرف المزاج، لكن يخيل لى أنه يود لو استمع إليه .

— لكنهم قد استمعوا إليه فى مجلس الحرب ، وسوف يستمعون إليه إن قال شيئاً معقولا ، لكن التسويف وانتظار شىء ما ، الآن عند ما لا يخشى بونابرت شيئاً خشيته من موقعة عامة ، ذلك مستحيل .

قال الأمير أندرو .

— نعم ، هل رأيته ؟ حسنا ، كيف شكله بونابرت ؟ ما الأثر الذى تركه عندك ؟

— نعم رأيته . وأنا موقن أنه لا يخشى شيئا بقدر ما يخشى معركة عامة .

كان واضحاً أن دولجوريكوف يقدر هذه النتيجة العامة التى انتهى إليها من لقائه مع نابليون .

— لو لم يكن خائفا من الموقعة ، فلم طلب تلك المقابلة ؟ لماذا يتفاوض ، ولماذا يتقهقر ، فوق كل شىء ، فى حين أن التقهقر مضاد لأسلوبه فى

الحرب ؟ صدّقني إنه خائف ، خائف من موقعة عامة . دنَت ساعته ..! إنتبه لـكلماتى ..!

فقال الأمير أندرو ثانية :

— لـكن قل لى ، كيف شكله هيه ؟

— إنه رجل يرتدى معطفاً رمادياً ،شديد اللهفة أن أقول له «ياصاحب الجلالة..!» وإن كان لم يحصل منى ، لأسفه ، على لقب ما ..! هذا هو ضربه من الرجال ، لايزيد .

ونظر إلى بيليبين بابتسامة ، واستطرد :

— وعلى الرغم من احترامى الـكبير لـكوتوزوف العجوز ، فإننا لنصبح طائفة معجبة من الناس ، لو أننا انتظرنا ، ومن ثم أعطيناه فرصة للهرب أو لخديعتنا الآن ، ونحن نمسك به بالتأكيد فى قبضتنا . لا ،لايجوز أن ننسى سوڤوروف وقاعدته : ألا تضع نفسك فى مركز يسمح بالهجوم عليك ، بل أن تهاجم بنفسك . صدقنى ، إن حيوية الشبان فى الحرب ، غالباً ما تشير إلى الطريق خيراً من كل خبرة الـكونـكتاتوريين (١)

قال الأمير أندرو :

— ولـكن فى أى موقع سنهاجمه ؟ لقد كنت فى المراكز الأمامية اليوم ، ومن المستحيل أن نجزم أين تقع قواته الرئيسية .

كان يريد أن يشرح لدولجوريكوف خطة للهجوم ، كان قد رسمها بنفسه .

فقال دولجوريكوف بسرعة ، وهو ينهض ، ويبسط خريطة على المائدة :

---

(١) كونـكتاتور : المسوف ، كنية لقب بها كوينتوس فابيوس مكسيموس فيروكوسوس ، نتيجة لتـكتيكه الحربى الحريص .

— أوه ، ذلك كله سواء . فقد حُسب حساب كل الامكانيات . فلو كان يقف أمام برون ...

وشرح الأمير دولجوريكوف بسرعة ، وإن كان ذلك على نحوٍ غير واضح ، خطة ڤيروتر لحركة تطويق جانبية .

وأخذ الأمير أندرو يجيب ، ويقرر خطته شخصياً ، وقد كان يمكن أن تضارع خطة ڤيروتر جودة ، لولا عيب واحد ، أن خطة ڤيروتر قد نالت القبول بالفعل . وما أن بدأ الأمير أندرو يوضح نقائص هذه الخطة الأخيرة ، ومزايا خطته هو ، حتى كف الأمير دولجوريكوف عن أن يستمع إليه ، وراح يحدق ، غائب الذهن ، لا إلى الخريطة ، بل إلى وجه الأمير أندرو .

قال دولجوريكوف :

— ومع ذلك فسيعقد الليلة مجلس للحرب عند كوتوزوف ، ويمكنك أن تقول كل ذلك هناك .

فقال الأمير أندرو ، وهو يبتعد عن الخريطة :

— سأفعل .

قال بيليبين ، وقد كان حتى الآن ، يصغى بابتسامة متفكهة حتى ذلك الحين ، إلى حديثهما ، وكان واضحاً أنه يهم بالقاء دعابة :

— فيم القلق ياسادة ؟ سواءً أتى الغد بالنصر أو الهزيمة ، فان مجد جيوشنا الروسيه مجد محقق . ففيما عدا صاحبك كوتوزوف ، لايوجد روسى واحد فى قيادة الخطوط ..! إن القادة هم : الچنرال هر ڤيميفن ، السكونت دي لانجيرون ، الأمير دى ليشتنشتاين ، الأمير دى هوهنلوهه ، وأخيراً بريشبريش[1] ، وهكذا مثل كل تلك الأسماء البولندية ..

---

(١) القائد البولندى المشار إليه ، هو الچنرال بريسبشيفيكى .

قال دولجوريكوف :

— اسكت يا تمّام ..! ليس هذا صحيحاً فهناك الآن روسيّان :
ميلورادوفيتش ودوختوروف ، وقد كان سيوجد هناك ثالث ، السكونت أراكشيف ، لو لم تسكن أعصابه ضعيفة جداً .

قال الأمير أندرو :

— على أى حال ، أظن الجنرال كوتوزوف قد خرج ، وأتمنى لكما التوفيق والحظ الحسن ياسادة ..!

وخرج بعد أن صافح دولجوريكوف ، وبيليبين .

ولم يستطع الأمير أندرو ، فى طريقه عائداً ، أن يُقصبر عن سؤال كوتوزوف ، وقد كان يجلس صامتاً إلى جواره ، عن رأيه فى موقعة الغد.

فنظر كوتوزوف نظرة صارمة إلى ياوره ، وأجاب بعد برهة صمت :

— أعتقد أننا سنخسر الموقعة ، ذلك ما قلت للسكونت تولستوى ، وطلبت منه أن يقول للامبراطور . فماذا تظن كانت إجابته ؟ « ياعزيزى الجنرال إننى مشغول بالأرز واللحم ، فاهتم أنت بنفسك بالمسائل الحربية ..! » نعم ... ذلك ماحصلت عليه من رد..!

الفصل الثانى عشر

بعد التاسعة بقليل من مساء ذلك اليوم ، ركب ڤيروتر ومعه خططه وخرائطه ، إلى مقر كوتوزوف ، حيث كان مقرراً أن ينعقد مجلس الحرب . دعى كل قادة الخطوط إلى مقر القائد العام ، وكانوا جميعاً هناك فى الوقت المحدد ، باستثناء الأمير باجراتيون الذى تنحى عن الحضور .

كان ڤيروتر وهو المشرف كل الاشراف على الموقعة المنتظرة ، يتناقض تناقضاً بارزاً ، بشغفه وحيويته وتوفزه ، مع كوتوزوف الناعس ، المستاء ، الذى لعب عن غير رضاء ، دور رئيس مجلس الحرب . وكان واضحاً أن

ڤيروتر يحس نفسه على رأس حركة قد غدت منذ الآن لا كبح لها . كان كحصان يعدو منحدراً على تل ، مربوطاً إلى عربة ثقيلة ، ولم يكن يعرف ما إذا كان يدفعها أو تدفعه ، بل يندفع بأقصى سرعة ، ولاوقت عنده ليرى إلام قد تفضى به حركته . كان ڤيروتر قد مضى مرتين فى ذلك المساء حتى خطوط حراسة العدو ، لكى يستطلعها بنفسه ، ومضى مرتين إلى الامبراطورين : امبراطور الروسيا ، وامبراطور النمسا ، ليبلغ ويشرح ، وإلى مقر قيادته حيث أملى خطة توزيع القوات باللغة الألمانية ، ووصل الآن ، وقد بلغ حداً بعيداً من الارهاق ، إلى مقر قيادة كوتوزوف .

كان واضحاً أنه مشغول مهموم ، حتى لقد أغفل واجبات الأدب نحو القائد العام . فكان يقطع عليه حديثه ، ويتكلم مسرعاً ، فى غير وضوح ، دون أن ينظر إلى مخاطبه ، ولا يجيب على ما يوجه إليه من أسئلة . وكان الطين يلوث ملابسه ، ومظهره مظهر الرجل المنهوك ، المشتت البال ، يدعو للرثاء ، على أنه كان فى الوقت عينه مترفعاً معتداً بنفسه .

كان كوتوزرف يشغل قلعة لأحد النبلاء محدودة السعة ، بالقرب من أوسترلتز . وفى غرفة الاستقبال الكبيرة التى استحالت مكتباً للقائد العام، تجمع كوتوزوف نفسه ، وڤيروتر، وأعضاء مجلس الحرب . كانوا يشربون الشاى ولم يكونوا ينتظرون إلا الأمير باجراتيون ليبدأوا المجلس . وفى النهاية جاء مراسلة باجراتيون ينبئهم أن الأمير ليس فى وسعه أن يحضر المجلس . ودخل الأمير أندرو ليبلغ القائد العام ذلك ، وأفاد من الإذن الذى منحه كوتوزوف إياه قبل ذلك ليحضر المجلس ، فبقى فى الغرفة .

قال ڤيروتر :

— لما كان الأمير باجراتيون لن يأتى ، فيصح أن نبدأ

وهو ينهض متعجلا من مقعده ، ويذهب إلى المائدة التى بسطت عليها خريطة هائلة لضواحى برون .

كان كوتوزوف ، وقد فكّ أزرار حلّته حتى انبعجت رقبته اللحيمة من فوق ياقته ، كما لو كانت تهم بالافلات ، يجلس وهو يوشك أن ينام ، فى مقعد واطىء ، وقد استقرت يداه السمينتان القصيرتان على ذراعى المقعد ، على مسافة متعادلة . ففتح عينه الواحدة بجهد ، على صوت ڤيروتر .

وقال وهو ينغض رأسه ، ثم تركها تسقط ، وأغمض عينه مرة أخرى:

— نعم ، نعم ، من فضلكم ..! فقد تأخر الوقت فعلاً .

فاذا كان أعضاء المجلس يظنون ، بادىء الأمر ، أن كوتوزوف إنما كان يتظاهر بالنوم ، فان الأصوات التى ندّت عن أنفه أثناء ما تلا ذلك من قراءة ، برهنت على أن القائد العام كان فى تلك اللحظة يستغرقه أمر أهم بكثير من رغبةٍ فى إبداء احتقاره لخطّة توزيع القوات ، أو لأى شىء آخر — كان منشغلا فى إشباع الحاجة البشرية التى لا تقاوم للنوم . كان نائماً حقاً . وحدج ڤيروتر كوتوزوف بنظرة ، بحركة رجل مشغول لا يستطيع أن يضيّع لحظة من وقته ، فلما اقتنع بأنه كان نائماً ، أخذ ورقة ، وبدأ يقرأ ، بصوت مرتفع رتيب ، خطة توزيع القوات للموقعة الموشكة ، بعنوان قرأه كذلك .

«خطة توزيع القوات لهجوم على مواقع الأعداء خلف كوبلنتز ، وسوكولنتز ، فى الثلاثين من نوفمبر ١٨٠٥ (١)»

وكانت الخطة معقدة وصعبة جداً ، وتبدأ على النحو التالى :

« حيث أن الجناح الأيسر للعدو يستقر على التلال المكسوة بالغابات ، ويمتد جناحه الأيمن على طول كوبلنتز ، وسوكولنتز ، خلف المستنقعات التى توجد هناك ، بينما نحن ، من الناحية الأخرى ، نتجاوز جناحه الأيمن

---

(١) كان ڤيروتر يقرأ بالألمانية ، ويستخدم التقويم السنوى الجديد ، فقد كانت هذه الخطة إذن مؤرخة فى الثامن عشر من نوفمبر ، بالتقويم الروسى .

لمسافة بعيدة ، بجناحنا الأيسر ، لذلك فما له ميزته أن نهاجم الجناح الأخير المذكور للعدو ، وبخاصة إذا احتللنا فريق سوكولنتز وكوبلنتز ، حيث نستطيع أن نهجم على جناحه ، وأن نتعقبه على السهل الواقع بين شلابانتز ، وغابة تيوراسًّا ، ونتجنب طوابير شلابانتز وبيلاووتز التى تغطى مقدمة العدو . ولهذا الغرض من الضرورى أن ... يتقدم الخط الأول ... يتقدم الخط الثانى ... يتقدم الخط الثالث ... وهكذا .

وبدا أن الجنرالات يصغون إلى الخطة الصعبة ، فى غير رضا : وقف الجنرال بوكسهورين ، طويلا أشقر الشعر ، مسنداً ظهره إلى الحائط ، عيناه مثبتتان بشمعة موقدة ، وكان يبدو أنه لا يصغى ، بل لا يريد أن يُظن به الإصغاء . وجلس فى قبالة ڤيروتر بالضبط ميلورادوڤيتش المحمر الوجه ، عيناه مفتوحتان على سعتهما ، تلمعان ، ومثبتتان على ڤيروتر ، وشاربه مبروم إلى أعلى ، وقد اتخذ لجلسته وضعاً عسكرياً ، فبرز مرفقا ذراعيه إلى الخارج ، واستقرت يداه على ركبتيه ، وارتفعت كتفاه مشدودتين . وبقى على صمته ، فى عناد ، محدقاً بوجه ڤيروتر ، ولم يشح بوجهه عنه إلا لما فرغ قائد أركان الحرب النمسوى من قراءته . فنظر ميلورادوڤيتش نظرة لها دلالتها إلى الجنرالات الآخرين . وإن كان المرء لا يستطيع أن يتبين من هذه النظرة ذات الدلالة ، ما إذا كان موافقاً أو غير موافق على هذه الترتيبات ، راضياً عنها أو غير راض . وجلس إلى جوار ڤيروتر الكونت لانجيرون ، وظل يبتسم ابتسامة خفية لم تبرح ، لحظة واحدة ، وجهه الذى يتفق كل الاتفاق مع نمط الوجوه الشائعة فى جنوب فرنسا ، وراح طيلة فترة القراءة يحدق إلى أصابعه الرقيقة التى كانت تلف ، بسرعة ، صندوقاً ذهبياً للسعوط عليه صورة ، وهو يمسك بأركان الصندوق . وفى وسط إحدى الجمل الطويلة كفَّ الحركة الدائرية لصندوق السعوط ، ورفع رأسه ، وقاطع ڤيروتر وهمَّ بأن يقول له شيئاً ، بأدب فيه عداء

يحوم حول أركان شفتيه الرقيقتين . على أن الجنرال النمسوى واصل قراءته ، وعبس بغضب ، ودفع بمرفقيه فى حركة مفاجئة ، كما لو كان يقول : « تستطيع أن تقول لى آرائك فيما بعد ، أما الآن فتفضل بالنظر إلى الخريطة ، والاستماع » . فرفع لانجيرون عينيه ، بتعبير عن الحيرة ، والتفت إلى ميلورادوفيتش كأنما ليبحث عنده عن تفسير ، لكنه التقى بنظرة هذا الأخير ، جامدة لامعنى لها ، فأسبل عينيه بحزن ، وأخذ يلف صندوق سعوطه مرة أخرى .

وتمتم كما لو كان يقول لنفسه ، وإن كان ذلك بصوت فيه من الارتفاع ما يُسمع معه :

— درس فى الجغرافيا ..!

أما بريسبيسفسكى ، فقد رفع يده إلى أذنه ، متجهاً صوب ڤيروتر ، بأدب وقور ، وبمظهر رجل يستغرقه الانتباه . وجلس دوختوروف قبالة ڤيروتر ، وهو رجل ضئيل القامة ، متواضع ، وجادّ المظهر ، وانحنى على الخريطة ، وأخذ يدرس المواقع والجهات غير المألوفة ، فى اهتمام ومثابرة . وسأل ڤيروتر عدة مرات أن يكرر كلمات لم يكن قد تبينها بوضوح ، وأسماء القرى الصعبة . وكان ڤيروتر يلبى طلبه ، ويكتب دوختوروف الأسماء والمواقع .

فلما فرغت القراءة التى استغرقت أكثر من ساعة ، أوقف لانجيرون صندوق سعوطه مرة أخرى ، وأخذ يقول ، دون أن ينظر إلى ڤيروتر ، ولا إلى أى شخص بالذات ، كيف كان من الصعوبة بمكان تنفيذ مثل هذه الخطة التى يفترض معها أن مواقع العدو معروفة ، على أنها قد تكون غير معروفة . كانت اعتراضات لانجيرون صحيحة ، وإن كان واضحاً أن الهدف الأساسى منها أن تظهر للجنرال ڤيروتر ، الذى قرأ خطته بمثل الثقة والاعتداد التى يخاطب بها صبية المدارس ،

أنه لم يكن يتكلم مع حمقى ، بل مع رجال فى وسعهم أن يعلّموه شيئاً من الفنون الحربية .

لما كفّ صوت ڤيروتر الرتيب عن القراءة ، فتح كوتوزوف عينيه ، كما يستيقظ الطحّان عندما ينقطع طنين عجلة الطاحون الباعث على النوم . وأصغى إلى ما قال لانجيرون ، كما لو كان يقول : «وإذن فما زلتم فى هذه الحكاية الحمقاء ..!» ، وأغمض عينه ثانية بسرعة ، وترك رأسه تغوص .

تكلم لانجيرون ، محاولا بكل ما وسعه من ضراوة ، أن يجرح كبرياء ڤيروتر ، بوصفه صاحب الخطة الحربية ، فاحتج بأن بونابرت قد يهاجم بدلا من أن يكون موضعاً للهجوم ، ذلك ممكن جداً ، ومن ثم تصبح هذه الخطة كلها مجردة من كل قيمة . فتلقى ڤيروتر كل الاعتراضات بابتسامة حازمة مزدرية ، وواضحٌ أنه على استعداد ، سلفاً ، أن يصدّ كل اعتراض ، أيا كان . وقال :

— لوكان باستطاعته الهجوم لفعل اليوم .

قال لانجيرون :

— فأنت تظن إذن أن لا قوة لديه ؟

أجاب ڤيروتر ، بابتسامة طبيب قديم ، تريد ربّة بيت عجوز أن تشرح له كيفية علاج أحد الأمراض :

— إن لديه على الأكثر أربعين ألف رجل .

قال لانجيرون بابتسامة خفية السخرية ، وهو يرمق ميلورادوڤيتش الذى كان قريباً منه ، فى طلب التأييد ، مرة أخرى :

— فهو فى هذه الحالة يطلب حتفه بنفسه ، إذ ينتظر هجومنا .

لكن ميلورادوڤيتش كان فى تلك اللحظة ، كما هو واضح ، يفكر فى أى شىء ، فيما عدا ما يتناقش فيه الجنرالان . وقال :

— سنرى كل ذلك ، والله ، غداً ، فى ميدان القتال ..!

فابتسم ڤيروتر مرة أخرى تلك الابتسامة التي تنمّ عما يجد من استغراب وسخرية في أن يتلقى اعتراضات من چنرالات روس ، وأن عليه البرهنة لهم ، لا على ما اقتنع به هو نفسه فحسب ، بل وما اقتنع به أيضاً الامبراطوران المالكان . وقال :

— إن العدو قد أطفأ نيرانه ، وتسمع من معسكره أصوات مستمرة ما معنى ذلك ؟ إما أنه يتقهقر ، وهو الشيء الوحيد الذي نحتاج أن نخشاه ، أو أنه يغيّر مواقعه (وابتسم بسخرية) ، على أنه حتى إذا اتخذ موقعاً في غابة تيوراسّا أيضاً ، فذلك أنه ببساطة يوفر علينا عناء كبيراً ، وتبقى كل ترتيباتنا ، حتى أدق التفاصيل ، كما هي .

فتكلم الأمير أندرو ، وقد كان حتى تلك اللحظة يتحيّن سانحة يفصح فيها عن شكوكه ، وقال :

— كيف ذلك ..؟

وهنا استيقظ كوتوزوف ، وسعل سعالا ثقيلا ، وأجال بصره في الچنرالات . وقال :

— أيها السادة إن خطة توزيع القوات للغد ، أو لليوم على الأصح ، فقد فات منتصف الليل ، لا يمكن أن تغيّر الآن . وقد سمعتموها ، وسنقوم جميعاً بأداء واجبنا . ولكن لا شيء قبل المعركة أهم من ...

وصمت قليلا :

— من أن ينام المرء جيداً ...

وتحرّك ، كمن يوشك أن ينهض فانحنى الچنرالات ، وانسحبوا كان منتصف الليل قد فات . وخرج الأمير أندرو .

كان مجلس الحرب الذي لم يستطع فيه الأمير أندرو أن يعبّر عن رأيه ، كما كان في مأموله ، قد أورثه شعوراً مستبهماً قلقاً . ولم يكن يعرف ما إذا كان

دولجوريكوف وفيروتر محقين ، أم كان كوتوزوف ، ولانجيرون والآخرون الذين لم يكونوا موافقين على الخطة ، على صواب .

وكان يدور بذهنه :

— ألم يكن من الممكن، حقاً، أن يدلى كوتوزوف بآرائه للامبراطور؟ أممكن أنه ، لاعتبارات تتعلق بالأشخاص ، وبالبلاط ، يجب أن يُخاطَر بحياة عشرات الآلاف ، وحياتى ، حياتى أنا ؟

— نعم ، من المحتمل جداً أننى سأقتل غداً .

وبغتة ، قامت فى خياله لفكرة الموت هذه ذكريات بعيدة نائية البعد ، قريبة وثيقة القربى : فتذكر وداعه الأخير لأبيه وزوجته ، وتذكر الأيام التى بدأ فيها حبه لها . وفكر فى حملها ، وأسف لها ولنفسه . وخرج من الكوخ الذى كان يقيم فيه مع نسفيتسكى ، فى حالة عاطفية عصبية ، لانَّ فيها قلبه ، وأخذ يمشى أمام الكوخ رائحاً غادياً .

كانت الليلة فيها ضباب ، وضوء القمر يومض من خلال الضباب بغموض . وكان يفكر :

— نعم . غداً ، غداً ..! كل شىء قد ينتهى بالنسبة لى غداً ..! كل هذه الذكريات لن تصبح شيئاً ، ولن يكون لأيها معنى عندى . وغداً عساه ، بل بالتأكيد ، فعندى شعور بذلك ، سيكون علىّ للمرة الأولى ، أنْ أظهر كل ما فى وسعى أن أفعل .

وصوّر له خياله الموقعة ، وخسارتها ، وتركز القتال فى نقطة واحدة ، وتردد القواد جميعاً . ثم تأتى تلك اللحظة السعيدة ، «طولون» ، تلك التى طالما انتظرها ، تأتى له أخيراً . فيعبر عن رأيه بوضوح وحزم لكوتوزوف ، وفيروتر ، وللامبراطورين ، ويبهتون جميعاً لدقة آرائه وعدالتها ، ولكن أحداً لا ينهض لتنفيذها ، ومن ثم يأخذ فصيلة ، وفرقة ، ويشترط ألا يتدخل أحد فى ترتيباته ، ويقود فرقته إلى النقطة الحاسمة ، ويظفر ، وحده ، بالنصر .

فأوحى إليه صوت آخر :

— ولـكن الموت ، والعذاب ..؟

على أن الأمير أندرو لم يجب هذا الصوت . ومضى يحلم بانتصاراته . إن خطط الموقعة التالية يرسمها هو وحده . إنه إسمياً ليس إلا ياوراً فى أركان حرب كوتوزوف ، لـكنه يفعل كل شيء وحده . ويكسب الموقعة التالية وحده ، ويُنحِّى كوتوزوف ويعيّن هو بدله .

فسأله الصوت الآخر :

— حسناً ، ثم ماذا ..؟ إن لم تجرح قبل ذلك ، عشر مرات ، أو تقتل ، أو يُغدر بك .. حسناً ، ثم ماذا ..؟ (١)

فأجاب الأمير أندرو على نفسه :

— حسناً ، ثم .. لا أعرف ما سيحدث ، ولا أريد أن أعرف ، ولا أستطيع . ولـكنى إن كنت أريد ذلك — أريد المجد ، أريد أن يعرفنى الناس وأن يحبونى ، فليس خطئي أنى أريده ولا أريد شـيئاً غيره ، وأعيش فى سبيله وحده . نعم ، فى سبيل ذلك وحده .. ! لن أقول لأحد أبداً ، ولـكن يا إلهى ، ماذا أفعل إن لم أكن أحب شيئاً إلا الشهرة وحبّ الناس ؟ الموت ، الجراح ، وفقدان العائلة — لست أخشى شيئا . ومهما كان كثير من الأشخاص أعزاء إلىّ — أبى ، أختى ، زوجتى — أعز الناس إلىّ — ومهما بدا ذلك مخوفاً وشاذا ، فاننى لأنزل عنهم جميعا فى سبيل لحظة مجد واحدة . لحظة ظفر على الناس ، وحب من ناس

---

(١) ينبغى لمن تهمه حياة تولستوى نفسه ، أن يلتى اهتماماً هنا إلى أن الفكرة التى تخطر للأمير أندرو ، ويتحاماها ، من أن أعظم جهود الانسان وأفضل أمانية يحبطها الموت ، هى نفس الفـكرة التى قلبت نظرة تولستوى نفسها إلى الحياة ، رأساً على عقب ، بعد نحو ستة عشر عاماً من كتابة هذا الفصل من « الحرب والسلام » . يراجع فى ذلك الفصل الثالث من « اعترافات » تولستوى .

لا أعرفهم ولن أعرفهم أبداً ، حب هؤلاء الناس هنا .

وهو يصغى ، إذ تدور فى ذهنه تلك الأفكار ، إلى الأصوات فى فناء مقر قيادة كوتوزوف . كانت تلك أصوات جنود المراسلة وهم يحزمون الطرود ، والحقائب ، وكان أحد الأصوات ، لعله صوت حوذى ، يعابث طبّاخ كوتوزوف العجوز الذى كان الأمير أندرو يعرفه ، وكان اسمه تيت . كان الصوت يقول :

— تيت ، اسمع ياتيت ..!

فأجاب العجوز :

— نعم ؟

قال الصوت المعابث :

— تيت ، ترا باتيت ..!

فصاح صوت أغرقه ضحك الجنود والخدم :

— أوه ، رح فى داهية ..!

— ومع ذلك فلست أحب ولا أقدّر شيئا ، إلا الظفر عليهم جميعا ، إننى أقدّر هذه القوة الصوفية الغريبة ، حق قدرها ، والمجد الذى يطفو ويحوم هنا فوقى ، فى هذا الضباب ..!

الفصل الثالث عشر

كان روستوف ، تلك الليلة ، فى طابور يقوم بنوبة استطلاع أمام فصيلة باجراتيون . كان جنوده من الفرسان مصطفين ، مثنى ، مثنى ، فى خط مستقيم . وكان يركب ، على نفس الصف ، يعالج أن يظهر على النعاس الذى ما يفتأ يراوده . وكان فى الوسع أن يُرى خلفه فراغ شاسع ، تومض فيه نيران معسكر جيشنا ، فى الضباب ، وكانت أمامه ظلمة يتغشاها الضباب . لم يكن روستوف يستطيع أن يرى شيئا ، مهما أتأر النظر فى ذلك البعد

المغلّف بالضباب : كان ثمّ شيء يومض، رمادياً أغبر، تارة ، وثم شيء أسود تارة أخرى ، ويبدو حينا أن أنواراً صغيرة تومض حيث ينبغي أن يكون العدو ، وحيناً يلوح له أن ذلك ليس إلا شيئاً يتخايل له أمام عينيه هو . وكانت عيناه ما تبرحان تغمضان ، ويلوح له في الخيال الامبراطور تارة ، أو دينيزوف ، أو ذكريات موسكو تارة أخرى ، فيفتح عينيه متعجلا ، ويرى رأس الحصان الذى يركبه ، وثيق القرب أمامه ، وأذنيه ، وأشكال الفرسان السوداء أحياناً ، إذا بلغ منها ست خطوات . أما فى البعد، فما زالت نفس الظلمة المغلفة بالضباب .

وكان يدور فى ذهن روستوف :

— ولم لا ..؟ عساه من الممكن جداً أن يحدث ذلك . . أن يلتقى بى الامبراطور ، ويصدر لى أمراً ، كما قد يصدره لأى ضابط . فيقول : « اذهب ، وانظر ماذا هناك ؟ » ، فهناك حكايات كثيرة عن معرفته لأحد الضباط بمثل هذه الطريقة العرضية بالضبط ، ثم يُلحقه بنفسه ..! فماذا لو أعطانى مكانا بجواره ؟ شد ما سوف أتفانى فى حراسته ، وأصدقه القول ، وأميط اللثام عمن يخدعونه ..!

وحتى يحقق روستوف حبه وفداءه للامبراطور ، صوّر لنفسه عدواً ، أو ألمانياً غادراً ، لن يقتله ، بسرور ، فحسب ، بل سيصفعه على وجهه أيضاً ، أمام الامبراطور . وبغتة ، أيقظته صيحة بعيدة ، فأجفل ، وفتح عينيه .

أين أنا ؟ أوه ، نعم ، على خط حدود الجيش .. كلمة المرور وكلمة السر : شافت ، أولمتز . ما أسخف أن تكون سريّتنا غداً فى الاحتياطى : سوف أطلب الإذن بالذهاب للجبهة ، فلعل تلك فرصتى الوحيدة لرؤية الامبراطور ولن يطول الوقت الآن على فراغى من النوبة . سأقوم بدورة أخرى وعند ما أعود أذهب إلى الجنرال وأطلب منه الإذن .

وسوّى نفسه على صهوة جواده ، ومسَّ الجواد كى يدور مره أخرى حول جنوده . وخيل له أن الظلمة بدأت تنقشع . ورأى ، إلى اليسار ، منحدَراً مائلا مستنيراً ، وقبالة المنحدر رابية تبدو فى وعورة بئر عميق . وعلى هذه الرابية بقعة بيضاء لم يستطع روستوف أن يتبينها إطلاقاً : أكانت درباً فى الغابة يضيئه القمر ؟ أو ثلجاً غير ذائب ، أو منازل بيضاء ؟ بل خيل له أن شيئاً يتحرك على تلك البقعة البيضاء . فخطر له :

— أظنه ثلجاً .. تلك البقعة . . بقعة . . لطخة[1] .. لا ، ليست لطخة . . ناتاشا . . أختى ، عيناها السوداوان . . نا ... تاشا ... (كم سيأخذها الدهش عند ما أخبرها كيف رأيت الامبراطور ..!) ناتاشا .. خذى جراب سيفى ..

— إلى اليمين يا صاحب السعادة ، هنالك شجيرات هناك .

بذلك جاء صوت أحد الفرسان وقد ركب روستوف ماراً به ، وهو يوشك أن ينام . فرفع روستوف رأسه التى أوشكت أن تغوص حتى مَعْرَفة حصانه ، وجذب العنان حتى حاذى الجندى . كان يوشك أن يستسلم لنعاس صبيانى ، فتىّ ، لا يقاوَم .

— ولكن فيم كنت أفكر ؟ لاينبغى أن أنسى .. كيف سأحدِّث الامبراطور ..؟ لا ، ليس ذاك — هذا فى الغد . أوه ، نعم ..! ناتاشا .. جراب السيف . اضربهم بالسيف .. مَن ؟ الفرسان .. آه الفرسان ذوى الشوارب «على شارع تفرسكايا ، ركب ذلك الفارس ذو الشارب» . كنت أفكر فيه أيضا أمام بيت جوريف بالضبط . جوريف العجوز .. أوه ، أما دينيزوف فهو شخص عظيم . ولكن هذا كله هراء . الشىء الرئيسى أن الامبراطور هنا . كيف نظر إلىّ ، وأراد أن يقول شيئا ، لكنه

---

(١) بالفرنسية .

لم يجرؤ ... لا ، أنا الذى لم أجرؤ . ولكن هذا هراء ، الشىء الرئيسى ألا أنسى الشىء الهام الذى كنت أفكر فيه . نعم ، ناتاشا ، جراب السيف ، نعم ، نعم ..! هذا صحيح ..!

ونزلت رأسه مرة أخرى على عنق الحصان. وخيل له فجأة ، أن النار تطلق عليه . فقال وهو يستيقظ :

— ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا ؟... اضربوهم ..! ماذا ..؟

فى اللحظة التى فتح فيها عينيه، سمع أمامه، حيث كان العدو، صيحات مترامية متطاولة تطلقها آلاف الأصوات . وأصاخ حصانه ، وحصان الجندى القريب إليه ، آذانهما لتلك الصيحات . وهناك ، من حيث جاءت الصيحات ، اشتعلت نار ثم انطفأت ، ثم اشتمل غيرها ، واشتعلت النيران على طول خط الفرنسيين ، وارتفع الصياح واطرد ارتفاعه . وكان فى وسع روستوف أن يسمع صدى الكلمات الفرنسية لكنه لم يستطع أن يتبينها . كان هزيم الكثرة الكثيرة من الأصوات مدوياً ، وكان كل ما وسعه أن يسمع : « أهاهاه ..! » و « ررر ..! » .

قال روستوف للفارس الذى إلى جانبه :

— ماهذا ؟ ماذا فهمت منه ؟ هذا معسكر العدو ، لابدّ ..!

فلم يجب الجندى .

فسأله روستوف بعد أن انتظر إجابةً منه :

— ماذا . . ألا تسمع ؟

فأجاب الجندى ، على مضض :

— من يستطيع القول يا صاحب السعادة ؟

فردّد روستوف :

— لابدّ أنه العدو ، من اتجاه الصوت .

فتمتم الجندى :

— قد يكون هو . وقد يكون لاشيء .. فالدنيا ظلام .

وصاح بحصانه المتململ :

— اثبت ..!

كان حصان روستوف أيضا يتململ ، وكان ينكت بحافره الأرض المثلوجة ، ويُنتر أذنيه للصوت ، وينظر إلى الأضواء . وزاد ارتفاع الصياح ، وامتزج فى هزيم شامل لايتسنى أن ينطلق إلا عن جيش من آلاف عديدة من الرجال . وامتدت الأضواء أبعد فأبعد ، على طول خط المعسكر الفرنسى على الأرجح . فلم يعد روستوف يراوده النوم بعد . كان للصياح الظافر المرح من جيش العدو ، أثره الحافز المستنهض ، عليه . وسمع الآن بوضوح :

— يحيا الامبراطور ..! يحيا الامبراطور ..!

فقال للجندى بجانبه :

— لايمكن أن يكونوا على مبعدة ، إنهم على الأرجح وراء الجدول مباشرة .

فتنهد الجندى دون أن يجيب ، وسعل بغضب . وسمع صوت سنابك حصان تقترب ، خبباً ، على طول خط الفرسان ، وظهرت فجأة من الظلمة المكسوة بالضباب ، قامة صف ضابط من الفرسان ، وقد ارتفعت فى ضخامة قامة الفيل .

قال صف الضابط وهو يركب حتى روستوف :

— ياصاحب السعادة ، الجنرالات ..!

فركب روستوف مع صف الضابط ، وهو مايزال يتلفت صوب النيران والصيحات ، لملاقاة رجال راكبين جاءوا على طول صف الفرسان . وكان أحدهم يمتطى جواداً أبيض . كان الأمير باجراتيون ، والأمير دولجوريكوف مع ضباط ياورانهم ، قد جاءوا ليشهدوا تلك الظاهرة الغريبة من الأنوار والصيحات فى معسكر العدو . فركب روستوف حتى بلغ باجراتيون ،

وقدّم إليه تقريره ، ثم لحق بالياورين الذين كانوا يصغون إلى ما يقول الجنرالات .

قال الأمير دولجوريكوف مخاطبا باجراتيون :

— صدقنى ، إنها ليست إلا خدعة ..! إنه قد تقهقر ، وأمر مؤخرة الجيش أن تشعل المواقد وتحدث ضجة ، حتى يخدعنا .

فقال باجراتيون :

— لا . . رأيتهم هذا المساء على تلك الرابية . فلو كانوا تقهقروا لانسحبوا أيضا من هناك .

ثم قال لروستوف :

— ياضابط ..! أما زال جنود طلائع العدو هناك ؟

فأجاب روستوف :

— كانوا هناك هذا المساء ، لكنى لا أعرف الآن ياصاحب السعادة . هل أذهب مع بعض جنودى لأتحقق ؟

فوقف باجراتيون ، وقبل أن يجيب حاول أن يتبين وجه روستوف فى الضباب . ثم قال بعد لحظة :

— حسنا ، إذهب لتتحقق . .

— نعم ياسيدى .

همز روستوف حصانه ، ونادى صف الضابط فيدشينكو وجنديين آخرين من الفرسان ، وأمرهم بأن يتبعوه ، ومضى يعدو خبباً منحدراً على التل فى اتجاه مصدر الصياح . وكان يحس بالروع والسرور معا إذ يركب وحده مع ثلاثة من الفرسان فى البعد الغامض الخطر المغشى بالضباب ، حيث لم يذهب أحد قبله . وناداه باجراتيون من الربوة ألا يعدو الجدول ، على أن روستوف أظهر أنه لم يسمع ، ومضى يركب إلى الأمام ، وهو يخطىء الشجيرات فيحسبها شجراً ، ويخطىء خدود الأرض فيحسبها رجالا ،

ويكتشف خطأه باستمرار . وبعد أن انحدر التل يعدو جنباً ، لم يعد يرى نيران مواقدنا ولا نيران مواقد العدو ، بل كان يسمع صياح الفرنسيين أعلى وأوضح . ورأى فى الوادى أمامه شيئاً كالنهر فلما بلغه رآه طريقاً . وبعد أن خرج إلى الطريق كبح عنان حصانه ، وتراوح بين أن يركب على طول الطريق ، أو يعبره ، أو يركب فى الحقل المظلم مصعّداً على الربوة . فلو أنه بقى على الطريق الذى كان يومض أبيض فى الضباب لكان ذلك آمن إذ يسهل أن يرى من يأتى على الطريق . فقال :

ـــ اتبعونى ..!

وعبرالطريق ، وأخذ يركب مصعّداً على الربوة عدواً ، صوب النقطة التى كان يقف فيها حرس الفرنسيين الأمامى ، فى ذلك المساء .

صاح أحد الفرسان من خلفه :

ـــ يا صاحب السعادة ، ها هو ذا . !

وقبل أن يتح الوقت لروستوف أن يتبين ما الشىء الأسود الذى ظهر بغتة فى الضباب ، أبرق ضوء أعقبه دوىّ طلقة . وأزّت رصاصة انطلقت عالية فى الضباب ، بصوت كالشكاة ، وتلاشت من السمع . ولم تنطلق الرصاصة الثانية من بندقية أخرى بل سطعت فى صينية البارود . فأدار روستوف حصانه وعدا راجعا . وتبع ذلك أربع طلقات ، على فترات متراوحة ، ومرت الرصاصات فى الضباب ، تئز بأصوات متغايرة . كبح روستوف عنان حصانه ، وقد اشتدت حميته عند سماع إطلاق النار ، كما اشتدت حمية صاحبه ، ثم عاد بخطوة السير . وكان فى روحه صوت مرح يقول :

ـــ حسنا ، هاتوا المزيد ، هاتوا المزيد ..!

إلا أن مزيداً من الرصاص لم ينطلق .

ولم يطلق روستوف العنان لجواده يعدو ، إلا عند ما اقترب من باجراتيون ، وركب حتى بلغ الجنرال ويده مرفوعة بالتحية .

كان دولجوريكوف مازال مصرًّا على أن الفرنسيين قد تقهقروا ولم يوقدوا النيران إلا على سبيل الخدعة . وكان يقول إذ كان روستوف يقترب:

— وعلام يبرهن ذلك ؟ فقد يتقهقرون ويتركون حرسا على الخطوط .

قال باجراتيون :

— من الواضح أنهم لم يذهبوا جميعا بعد ، أيها الأمير . انتظر حتى صباح الغد ، سنتبين كل شيء غداً .

قدّم روستوف تقريره ، وهو منحنٍ إلى الأمام ويده مرفوعة بالتحية ، غير مستطيع أن يكتم ابتسامة السرور الذى ابتعثه ركوبه فى الليل ، وصوت الطلقات على الأخص :

— ما زال الحرس على التل يا صاحب السعادة ، حيث كان تماماً فى المساء .

قال باجراتيون :

— حسناً جداً . حسناً جداً . أشكرك أيها الضابط .

قال روستوف :

— يا صاحب السعادة هل أستطيع أن ألتمس رجاء ؟

— وما هو ؟

— ستكون فصيلتنا غدا فى الاحتياطى ، هل أستطيع أن ألتمس أن ألحق بالفصيلة الأولى ؟

— ما اسمك ؟

— الكونت روستوف .

— أوه ، حسناً جداً . يمكنك أن تبقى معى .

— سأل دولجوريكوف :

— ابن الكونت إيليا روستوف ؟

فلم يجب روستوف وقال :

— يمكننى إذن أن أعتمد على هذا يا صاحب السعادة ؟
— سأصدر الأمر بذلك .
فدار بفكر روستوف :
— من المحتمل جدا فى الغد أن يبعث بى برسالة إلى الامبراطور .
الحمد لله ..!

كانت النيران والصياح فى جيش العدو صادرة عن أن الامبراطور بنفسه طاف حول مخيمات الجنود فى أثناء قراءة ندائه عليهم . فلما رآه الجنود أشعلوا جذوات من القش ومضوا يجرون خلفه صائحين : يحيا الامبراطور ..!

كان نداء نابليون ما يلى :

« أيها الجنود ..! إن الجيش الروسى يتقدم أمامكم ليثأر للجيش النمسوى فى أولم . إنها نفس الكتائب التى كسرتموها وهزمتموها فى هولابرون(١)، وتعقبتموها منذ ذلك الحين ، حتى هذا المكان . إن المواقع التى نحتلها مواقع منيعة ، وعند ما يزحفون ليلتفوا حولى إلى اليمين ، سيكشفون عن جناحهم . أيها الجنود ..! أننى أقود بنفسى كتائبكم وسأظل بعيدا عن النيران طالما ألقيتم الفوضى والاضطراب فى صفوف العدو ، ببسالتكم المعهودة ، ولكن إذا كان النصر موضع شك ولو لحظة واحدة فسترون امبراطوركم يتعرض لأولى ضربات العدو ، فلا محل للتردد فى النصر ، وبخاصة اليوم ، حيث يوضع فى الميزان شرف المشاة الفرنسيين .. وما ألزمه لشرف الأمة .

---

(١) هولابرون هى الموقعة التى يسميها تولستوى شون جرابيرن . والنقطتان متجاورتان .

ولا تشتتوا صفوفكم بحجة إرجاع الجرحى ..! وينبغى أن يعتنق كل منكم هذه الفكرة : إننا يجب أن نهزم عملاء انجلترا هؤلاء الذين يحفزهم كل هذا الحقد على أمتنا . إن هذا النصر سوف ينهى حملتنا وسوف يمكننا من أن نتخذ مواقعنا للشتاء ، حيث تلتقى بنا الجيوش الفرنسية الجديدة التى تشكل فى فرنسا ، وعندئذ فإن الصلح الذى سأعقده سيكون صلحا جديراً بشعبى ، وبكم ، وبى .

نابليون

الفصل الرابع عشر

كان الظلام مازال سائداً فى الخامسة صباحاً . ولم تكن قوات الوسط ولا الاحتياطى ، ولا جناح باجراتيون الأيمن ، قد تحركت بعد ، على أن هناك حركة ولغطاً فى الجناح الأيسر بين صفوف المشاة والفرسان والمدفعية التى كان عليها أن تنحدر على المرتفعات لتهاجم الجناح الفرنسى ، وترده إلى جبال بوهيميا وفقاً للخطة الموضوعة . وكان دخان مواقد المعسكر التى يُلقى إليها بكل ما هو زائد عن الحاجة ، يجعل العيون ترمش . كان الجو بارداً ، والظلمة سائدة . وكان الضباط يشربون الشاى ويفطرون متعجلين ، والجنود يمضغون قطع البسكوت ، ويدقون الأرض بأقدامهم ليدفأوا ، وهم متجمعون حول مواقدهم ، ويلقون إلى النيران ببقايا الخيام ، والموائد ، والكراسى ، والعجلات والأحواض ، وكل شىء هم فى غنى عنه أو يعجزهم أن يحملوه معهم وكان أدلاء الصفوف النمسويين يتحركون وسط القوات الروسية ، ويقومون بمهمة إعلان الزحف فما أن يبدو ضابط نمسوى بالقرب من مقر أحد الضباط القواد حتى تأخذ الفرقة تتحرك ، فيجرى الجنود بعد أن يهبوا واقفين من جانب نيرانهم ، ويدفعون بغلايينهم فى أحذيتهم ،

وحقائبهم فى عرباتهم ، ويهيئون بنادقهم ، ويصطفّون . ويزرر الضباط ستراتهم ، ويوثقون أبازيم سيوفهم وجراباتهم ، ويتحركون صائحين على طول الصفوف . ويربط سائقو عربات النقل أجمة عرباتهم ويشحنونها ، ويربطون عليها الأحمال . ويركب ضباط الياوران وقواد الكتائب والفرق ، ويرسمون علامة الصليب ، ويصدرون التعليمات والأوامر والطلبات النهائية لجنود المهمات الذين يتخلفون ، ويدوى وقع آلاف الأقدام الرتيب . وتتحرك الصفوف إلى الأمام دون أن تعرف إلام تتقدم ، وتعجزها الحشود المحيطة بها ، والدخان ، والضباب المتكاثف ، عن أن ترى المكان الذى تبرحه ، أو المكان الذى تمضى إليه .

والجندى ، فى الزحف ، تحدق به فرقته وتحصره وتحمله معها ، كالبحار فى سفينته . ومهما أبعد فى السير ، ومهما بلغ من بقاع غريبة غير معروفة ، ومحفوفة بالخطر ، فإنه كالبحار تحيط به دائماً سطوح سفينته بعينها ، وصواريها ، وأشرعتها ، وتحيط دائماً بالجندى الصفوفُ بعينها ، ضابط الصف ايڤان ميتريتش بعينه ، وكلب الفرقة چاك بعينه ، والقواد بعينهم . وقلما يعنى البحار بمعرفة خط العرض الذى تبحر عليه سفينته ، إلا أنه فى يوم الموقعة ترن نغمة صارمة رصينة يحسها الجميع فى الجو المعنوى الذى يحيط بالجيش ، ويعلم الله من أين أتت ، وكيف ، لكنها تنذر بمقدم شىء حاسم وجليل ، وتوقظ فى الجنود تطلعا غير مألوف . فى يوم الموقعة يعالج الجنود ، بانفعال ، أن يتجاوزوا نطاق اهتمامات فرقتهم . ويصيخون السمع ، ويجيلون البصر ، ويتساءلون فى لهفة عما يدور حوالبهم .

وكان الضباب قد كثف وغام ، حتى لم يكن بوسعهم أن يروا إلى بُعد عشر خطوات أمامهم . على أن الدنيا استنارت . وكانت الشجيرات تلوح كأشجار مردة ، والأرض السوداء كأنها هضاب ومنحدرات وعرة . وقد كان يحتمل أن يلتقى المرء بالعدو المستخفى ، فى أى مكان ، على بُعد عشر خطوات . إلا

أن الطوابير تقدمت أمداً طويلا ، في نفس الضباب طيلة الوقت ، تنحدر ربوات وترقاها ، وتتحامى حدائق وأفنية ، ولا تلتقى بالعدو فى أى مكان ، بل فشا فى الجنود ، على العكس ، شعورٌ بأن أمامهم ، وإلى الخلف ، كانت تتحرك طوابير روسية أخرى ، فى نفس الاتجاه . وأحس كل جندى بالسرور ، لمعرفته أنه فى ذهابه إلى المكان المجهول الذى يتجه إليه ، يصحبه إليه أيضا كثير وكثير من جنودنا .

وقيل فى الصفوف :

— هاك الآن ، لقد مرَّ جنود فرقة كورسكى أيضا .

— مدهش يا أولاد ، كم من قواتنا تجمعت ..! نظرت البارحة إلى مواقد المعسكر ، فلم تكن لها نهاية . موسكو أخرى ، مضبوط ..!

على أن أحداً من قواد الخطوط لم يذهب إلى الصفوف أو يتكلم إلى الجنود — فقد كان القواد ، كما رأينا فى مجلس الحرب ، منحرفى المزاج ، غير راضين عن الحكاية كلها ، فلم يكلفوا أنفسهم ، من ثم ، عناء إدخال البهجة على صدور الرجال ، بل قنعوا بتنفيذ الأوامر — إلا أن القوات كانت تسير فى مرح ، كما تفعل دائماً إذ تذهب للمعركة ، وبخاصة إذا كانت تنبرى للهجوم . ولكنهم بعد أن ساروا قرابة ساعة فى الضباب الكثيف ، اضطر الجانب الأكبر من الجنود أن يتوقف ، وشاع بين الصفوف حسٌ غير مريح بوقوع ارتباك وتعثر ما . ويشق جداً أن نحدد كيف ينتقل ويفشو مثل هذا الشعور ، لكنه ينتقل بالتأكيد وعلى وجه القطع ، ويسرى سريعا دون أن يحس ، ودون أن تتسنى مقاومته ، كما تسرى المياه فى جدول جار . ولو كان الجيش الروسى وحيداً ، دون حلفاء ، فعساه يكون قد مر وقت طويل قبل أن يستحيل هذا الحس بالتعثر فى القيادة ، إلى يقين عام ، أما والحال تلك ، فقد عزى اضطراب النظام والفوضى ، طواعية وعلى نحو

طبيعى ، إلى الألمان[1] الحق . وكان الكل على يقين من أن ربكة لن ينجم عنها إلا الخطر قد أثارها آكلوا القانق هؤلاء .

— لماذا وقفنا ؟. هل الطريق مسدود ؟. أم قد التقينا بالفرنسيين بالفعل ؟

— لا ، لا يستطيع المرء أن يسمعهم . ولو كنا التقينا بهم لأطلقوا النار .

— كانوا على عجلة من أن يرسلونا ، وها نحن نقف فى وسط الميدان دون ما علة ولا سبب . كله من فوضى هؤلاء الألمان الملاعين !. يا لهم من أغبياء ..!

— نعم ، كنت أحب أن أراهم فى الجبهة ، ولكن لا خوف عليهم ، إنهم يتجمعون فى الخلف . وها نحن نقف الآن جوعانين .

قال ضابط :

— هل سنخلص الآن سريعا ؟ يقولون إن الفرسان يسدون الطريق .

وقال آخر :

— آه ، هؤلاء الألمان الملاعين ..! إنهم لا يعرفون بلادهم نفسها !

وصاح ياور وقد أقبل راكبا :

— أية فصيلة أنتم ؟

— الثامنة عشرة .

— فلماذا أنتم هنا ؟ كان ينبغى أن تتقدموا منذ زمن طويل . الآن لن تصلوا هناك إلا فى المساء .

---

(١) كان الجندى الروسى يعتبر النمسويين ، وكل من لا يتكلم الروسية عامة ، كلهم من « الألمان » . وكلمة « ألمانى » باللغة الروسية هى nemety وتقرب مما يقابلها بالعربية : « الأعجم » ، أى ذلك الذى لا يعرب ولا يبين ، فيكاد يصبح من الحيوانات « العجماء » .

فقال الضابط وهو يركب مبتعدا :

— يالها من أوامر حمقاء ..! إنهم لا يعرفون ، هم أنفسهم ، ماذا هم فاعلون ..!

ثم مر بهم جنرال راكبا ، وهو يصيح مغضبا بلغة غير الروسية .

قال جندى مقلدا الجنرال بعد أن ابتعد :

— ترابتا — تا ..! لا أحد يعرف ما هذه الرطانة . إننى أود لو أطلقت عليهم الرصاص ، الأوغاد ...!

وقيل فى جوانب متعددة :

— كانت الأوامر أن نكون فى المكان قبل التاسعة ، ولكننا لم نقطع نصف المسافة . أوامر عظيمة ..!

وأخذ شعور الحيوية التى بدأ الجنود به سيرهم ينتسخ إلى ضيق وغضب للترتيبات الحمقاء ، ومن الألمان .

كانت علة الاضطراب أنه فى حين كان الفرسان النمسويون يتحركون صوب جناحنا الأيسر ، وجدت القيادة العليا أن قلبنا يبتعد بمسافة مسرفة البعد عن جناحنا الأيمن ، فصدر الأمر إلى الفرسان أن يعودوا جميعاً إلى اليمين . ومر أمام المشاة عدة آلاف من الفرسان ، فاضطر المشاة للانتظار .

ووقع شحان ، فى الجبهة ، بين أحد أدلاء خطوط النقل النمسويين وجنرال روسى . هتف الجنرال يطلب إلى الفرسان أن يقفوا ، فرد النمسوى بأنه ليس الملوم بل القيادة العليا وفى هذه الأثناء وقف الجنود وقد زاد شعورهم بالضيق والهبوط . وبعد تأخير ساعة تحركوا فى النهاية ، منحدرين على الربوة . وكان الضباب يتشتت على الربوة ولكنه ما يزال كثيفاً بأسفلها ، حيث كانوا يهبطون . وسمعت طلقة أمام الضباب ، ثم أخرى ، فى غير انتظام أولاً ، وعلى فترات متراوحة — تراتا ... تات .. ثم تزايد ترددها بانتظام واطراد ، وتسارعت الطلقات . وبدأت المعركة

عند جدول « جولدباخ » .

لم يكن الروس ينتظرون أن يقعوا على العدو بجانب الجدول ، فلما وقعوا عليه فى الضباب ، ولم يسمعوا كلمة تشجيع من قوادهم ، وقد فشا فيهم الشعور بأنهم جد متأخرين ، وكانوا فضلا عن ذلك كله ، غير مستطيعين أن يروا شيئاً أمامهم أو حولهم فى الضباب الكثيف ، أخذوا يتبادلون الرصاص مع العدو ، بكسل . وزاحوا يتقدمون ويكفون ، ولا يتلقون الأوامر فى ميعادها من الضباط أو الياورين الذين كانوا يهيمون فى الضباب ، فى تلك البقعة المجهولة ، يعييهم أن يعثروا على الفرق التى ينتمون إليها هم أنفسهم . وبدت المعركة ، بهذه الطريقة ، بالنسبة للصف الأول والثانى والثالث ، وكانت هذه الصفوف قد نزلت إلى الوادى . أما الصف الرابع الذى كان معه كوتوزوف ، فقد وقف على مرتفعات «براتسبين» .

أما تحت ، حيث كانت المعركة تبدأ ، فقد كان الضباب ما يزال كثيفاً ، على أنه كان ينجاب فى السفح المرتفع ، ومع ذلك فلم يكن من الميسور أن يظهر شىء مما يجرى فى الجبهة . ولم يعرف أحد ، حتى تجاوزت الساعة الثامنة ، ما إذا كانت كل قوات العدو على بعد ستة أميال ، كما كنا نفترض ، أو كانت أقرب من ذلك ، فى ذلك البحر من الضباب .

كانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحا . وكان الضباب مايزال كثيفاً كأنه بحرٌ فى أسفل الربوة ، على أن الضوء كان صافياً رائقاً ، فوق ، فى قرية « شلابانيتز » حيث كان نابليون يقف وحوله ماريشالاته . وكانت فوقه سماء زرقاء صافية ، وكان قرص الشمس الضخم يرتعش كأنه طوفٌ هائل أجوف قرمزى على سطح ذلك البحر الأبيض اللبنىّ من الضباب . لم يكن الجيش الفرنسى بأكمله ، ومعه نابليون نفسه وهيئة أركان حربه ، على الجانب البعيد من الجداول والغدران فى سوكولينتز وشلابانيتز ، وهى التى كنا ننتوى أن نتخذ مواقعنا فيما وراءها ، وأن نبدأ من هناك المعركة ،

بل كانوا على الجانب القريب ، قريبين من قواتنا حتى كان فى وسع نابليون بالعين المجردة ، أن يتبين الفارس من الراجل فى صفوفنا . وجلس نابليون ، فى عباءته الزرقاء التى كان يرتديها أثناء حملة إيطاليا ، على حصانه العربى الأشهب الصغير ، أمام الماريشالات بقليل . كان يحدق ، فى صمت ، إلى التلال التى كانت تلوح كأنها ترتفع من بحر الضباب ، وتتحرك عليها القوات الروسية فى البعد ، وكان يصغى لأصوات إطلاق النار فى الوادى ، ولم تكن تتحرك عضلة واحدة فى وجهه الذى كان ما يزال متهضما نحيفاً فى تلك الأيام . وكانت عيناه البرقتان مثبتتين ، بحدة ، على بقعة واحدة . كان ماتوقعه تحقق فعلا ، ونزل جانب من القوات الروسية إلى الوادى ، بالفعل ، صوب البحيرات والبرك ، وترك جانب آخر مرتفعات براتسبين ، التى كان ينوى أن يشن عليها الهجوم ، ويعدها مفتاح الموقف ، ورأى من فوق الضباب ، أن الصفوف الروسية ، وحرابها تلمع ، تتحرك باستمرار ، فى غور بين ربوتين ، فى اتجاه ذاهب نحو الوادى ، وأنها تختفى ، صفاً بعد صف ، فى الضباب . ورأى بوضوح ، من الأنباء التى تلقاها فى مساء البارحة ، وصوت العجلات ووقع الأقدام التى سمعها جنود الطلائع فى خلال الليل ، ومن حركة القوات الروسية التى لا نظام فيها ، ومن كل القرائن متجمعة ، أن الحلفاء كانوا يظنونه بعيداً أمامهم ، وأن القوات المتحركة بالقرب من براتسبين تكوّن قلب الجيش الروسى ، وأن القلب كان قد ناله الوهن فعلا ، بما يكفى لأن يشن عليه الهجوم . لكنه مع ذلك لم يبدأ الاشتباك .

كان اليوم عنده يوماً عظيما — ذكرى عيد تتويجه . وكان قد نام قبل الفجر بضع ساعات ، وركب حصانه وقد انتعش ، وامتلأ بالحيوية ، واعتدل مزاجه ، وخرج إلى الميدان ، فى تلك الحال السعيدة المواتية التى يبدو فيها كل شىء ممكناً ، وينجح فيها كل شىء . جلس بلا حراك ، ينظر

إلى المرتفعات التى تتبدى فوق الضباب ، وكان لوجهه الهادىء البارد مظهر السعادة الواثقة المعتدة بنفسها الذى يراه المرء على وجه صبى سعيد فى حبه ، ووقف الماريشالات خلفه ، لايجسرون أن يشتتوا من انتباهه . كان ينظر تارة إلى مرتفعات براتسبين ، وتارة أخرى إلى الشمس تطفو طالعة من الضباب .

فلما طلعت الشمس تماماً من الضباب ، وأخذت الحقول والضباب تومض بالضوء الباهر — كما لو لم يكن ينتظر إلا ذلك حتى يبدأ المعركة — نزع قفازه من يده البيضاء الجميلة القسمات ، وأشار بها إلى الماريشالات ، وأمر ببدء المعركة . فعدا الماريشالات ، يصحبهم ياورانهم ، فى اتجاهات مختلفة ، وبعد دقائق قليلة كانت القوات الرئيسية للجيش الفرنسى تتحرك مسرعة نحو مرتفعات براتسبين التى كانت تتجرد باطراد ، من القوات الروسية المنحدرة إلى الوادى عن يسارها .

الفصل الخامس عشر

فى الساعة الثامنة ركب كوتوزوف إلى براتسبين ، على رأس الصف الرابع ، وهو الذى كان تحت قيادة ميلورادوفيتش ، وقد كان على هذا الصف أن يأخذ مكان صفى برسبيشفسكى ولانجيرون بعد أن هبط هذان الصفان إلى الوادى بالفعل . وحيا كوتوزوف جنود الفرقة الأمامية ، وأصدر إليهم الأمر بالمسير ، فأشار بذلك إلى أنه ينوى قيادة الصف بنفسه . فلما بلغ قرية براتسبين وقف . كان الأمير أندرو إلى الخلف ، فى وسط العدد الهائل الذى يتكون منه مرافقو القائد العام . وكان فى حال من الاهتياج والحنق المكظوم ، على أنه كان هادئاً ، متحكماً فى نفسه ، كما يكون المرء عند دنو لحظة طال الأمد على انتظارها . كان على يقين راسخ من أن هذا هو

يوم طولون عنده ، أو يوم جسر آركولا [١]. أما كيف سيتأتى ذلك فلم يكن يعرف ، وإن كان يستشعر اليقين أنه سوف يحدث . كان يعرف موقع قواتنا وموقفنا بقدر ما كان يسع أى شخص فى جيشنا أن يعرف ذلك . وقد نُسيت خطته الاستراتيجية الخاصة به ، التى لم يعد من الممكن كما هو واضح ، أن تنفذ الآن . وقد قبل خطة فيروتر ، وأخذ يتأمل الاحتمالات الممكنة ، ويشكل مشروعات جديدة قد تتطلب سرعة بديهته وسرعة قراره وحسمه فى الأمور .

وكان يسمع فى اليسار ، تحت ، فى الضباب ، إطلاق نيران البنادق من قوات غير مرئية . وكان الأمير أندرو يعتقد أن المعركة ستتركز هناك . وكان يفكر :

ــ سنلاقى ، هناك ، صعوبات ، وسوف يرسل بى إلى هناك ، مع لواء ، أو فرقة ، وهناك ، واللواء فى يدى ، سأتقدم وأحطم كل ما يقف فى طريقى .

لم يكن بوسعه أن ينظر ، فى هدوء ، إلى أعلام الكتائب المارة . كان يراها فلا ينى يفكر :

ــ عسى ذلك هو نفس العَلم الذى سأقود به الجيش .

كان كل ما بقى ، فى الصباح ، من ضباب الليل ، على المرتفعات ، صقيعٌ أبيض يستحيل الآن ندىً ، لكنه فى الوادى مازال جاثماً كبحر من اللبن الأبيض . لم يكن يرى شىء فى الوادى ، إلى اليسار حيث هبطت قواتنا ، وحيث تأتى أصوات الرصاص . أما فوق المرتفعات فقد كانت السماء صافية قاتمة ، وإلى اليمين قرص الشمس الضخم . وإلى الأمام، بعيداً

---

(١) مسرح انتصار نابليون الباهر ، فى مقاطعة فيرونا ، على قوات نمسوية تفوقه بكثير فى ١٧٩٦ .

على الضفة الأخرى من ذلك البحر من الضباب ، كان فى وسع المرء أن يتبين بعض الربوات تكسوها بالغابات ، ولعل العدو كان هناك ، فقد كان يمكن للمرء أن يتبين شيئاً ما هناك . وكان الحرس إلى اليمين ، يدخلون تلك المنطقة الضبابية ، تصحبهم أصوات السنابك والعجلات ، وومض الحراب بين الفينة والفينة . وإلى اليسار ، أقبلت ، فيما وراء القرية ، حشود مماثلة من الفرسان ، ثم اختفت في بحر الضباب . أما إلى الأمام وإلى الخلف فقد كانت قوات المشاة تتحرك . كان القائد العام يقف فى طرف القرية ، ويدع القوات تمر به . وكان كوتوزوف يبدو ، ذلك الصباح ، مرهقاً ، ضيق الصدر . ووقفت المشاة التى كانت تمر أمامه ، دون أمر ، وقد سد الطريق أمامها شىء ما ، فيما هو واضح .

قال كوتوزوف لجنرال أقبل راكباً إليه :

— أصدر إليهم الأمر من فضلك بتكوين صفوف كتائب ، والدوران حول القرية ..! ألا تفهم ، يا صاحب السعادة ، يا سيدى العزيز ، أنك لا يجب أن تمر فى طابور واحد من خلال شوارع القرى الضيقة ، عندما تكون زاحفاً على العدو ؟

فأجاب الجنرال :

— إننى أنوى أن أعيد تشكيل الصفوف بعد القرية ياصاحب السعادة

فضحك كوتوزوف بمرارة :

— سيكون هذا مدهشاً ، أن تبسط صفوفك على مشهد من العدو ! مدهش جداً ..!

— ما زال العدو بعيداً يا صاحب السعادة . وحسب التعليمات ..

فهتف كوتوزوف بمرارة :

— التعليمات ..! من قال لك ذلك ؟ من فضلك نفذ الأوامر .

— نعم يا سيدى .

همس نسفيتسكى إلى الأمير أندرو :

— يا صاحبي العزيز ، العجوز مخنق مستشيط .

وأقبل ضابط نمسوى فى حلة بيضاء ، وفى قبعته ريش أخضر راكباً يعدو إلى كوتوزوف ، وسأل باسم الامبراطور : هل تقدم الصف الرابع إلى المعركة ؟

فاستدار كوتوزوف دون أن يجيب ، وتصادف أن وقعت عينه على الأمير أندرو الذى كان بجانبه . فلما رآه ، لانت نظرته اللاذعة الطافحة بالشر كما لو كان يقر بأن ما يجرى ليس مما يُلام عليه ياوره ، ودون أن يجيب الياور النمسوى . اتجه إلى بولكونسكى بالحديث :

— أذهب ياعزيزى وانظر هل مرت الفرقة الثالثة من القرية . قل لها أن تقف وتنتظر أوامرى .

وما كاد الأمير أندرو يتحرك حتى أوقفه .

وأضاف :

— واسأل ما إذا كان القناصة قد اتخذوا أماكنهم .

وتمتم لنفسه ، دون أن يجيب الضابط النمسوى مع ذلك :

— ماذا يفعلون ؟ ماذا يفعلون ؟

وانطلق الأمير أندرو يعدو ، لينفذ الأمر .

وتجاوز الكتائب التى كانت تواصل تقدمها ، وأوقف الفرقة الثالثة ، وتحقق من أنه لايوجد فعلا قناصة أمام صفوفنا . ودهش الكولونيل الذى كان يقود الفرقة لأمر القائد العام بأن يخرج الرماة إلى الأمام دهشة كبيرة . فقد كان يحس بيقين تام أن أمامه قوات أخرى وأن العدو لا بد على بعد ستة أميال على الأقل . ولم يكن يُرى فعلا شىء ما أمامه ، إلا منحدر فاصل يخفيه الضباب الكثيف . وبعد أن أبلغ الأمير أندرو الأوامر باسم القائد العام ، ليصحح هذا النسيان ، عدا راجعاً . كان

كوتوزوف ما زال فى نفس المكان وجسمه البدين يستقر ثقيلا على السرج ، فى إرهاق الشيخوخة ، يتثاءب بتعب وملال ، مغمض العينين . ولم تكن القوات تتحرك ، بل وقفت ومؤخرات بنادقها مركوزة إلى الأرض .

وقال للأمير أندرو :

— حسناً ، حسناً ..!

والتفت إلى چنرال كان يقول ، وساعته فى يده ، أن الوقت قد أزف لكى يتحركوا ، فقد نزلت بالفعل كل صفوف الجناح الأيسر .

وتمتم كوتوزوف ، فى وسط تثاؤبه :

— ما زال فى الوقت متسع كبير يا صاحب السعادة .

وردد :

— متسع كبير . .

وعندئذ سمع على مسافة من وراء كوتوزوف ، صوت فرق تؤدى التحية . واقترب هذا الصوت بسرعة على طول الخط الممتد للصفوف الروسية الزاحفة . كان واضحاً أن الشخص الذى تؤدى له التحية يتقدم راكباً بسرعة فلما بدأ جنود الفرقة التى كان يقف أمامها كوتوزوف ، يهتفون ، ركب القائد العام قليلا إلى أحد الجوانب ، ونظر حواليه عابساً . كان ، على الطريق الآتى من براتسبين ، ما يبدو أنه فصيلة من الفرسان ، فى حلل متباينة ، تأتى عدواً . وكان اثنان منهم يركبان ، فى الأمام ، جنباً إلى جنب ، يعدوان بأقصى سرعة . أحدهما فى حلة سوداء وفى قبعته ريش أبيض ، يركب حصاناً أصهب مجذوذ الذيل ، أما الآخر فيركب حصاناً أسود . وهو يرتدى حلة بيضاء ، كانا هذان هما الامبراطوران ، يتبعهما مرافقوهما . فاتخذ كوتوزوف سلوك الجندى القديم فى الجهة ، وأصدر أمره :

— انتباه ..!

وركب إلى الامبراطوريين ، رافعاً يده بالتحية . وقد تغير فجأة مظهره وسلوكه جميعا . واتخذ مظهر التابع الذى يطيع الأوامر دون تفكير واصطنع مظهر احترام كان من الواضح أنه ينفّر ألكسندر منه . وركب إليه ، بالتحية .

وإنما مر هذا الأثر المنفّر على وجه الامبراطور الفتى السعيد ، كسحابة من الغيام فى سماء صحو ، وامّحى وكان الامبراطور ، بعد اعتلاله ، يبدو يومها أنحف قليلا مما كان فى ساحة أولمتز حيث رآه بولكونسكى المرة الأولى فى الخارج ، وإن كان ما زال فى عينيه الرماديتين الرائعتين ذلك الامتزاج الآسر بين الجلال والوداعة ، وفى شفتيه الرقيقتين نفس القدرة على اتخاذ شتى ألوان التعبير ، وما زال فيه نفس المظهر الغالب من الشباب البرىء الدمث القلب .

كان قد بدا ، فى أولمتز ، أكثر جلالا ومهابة ، أما هنا فقد بدا أوضأ وأزخر بالنشاط والحيوية ، وكان متضرج الوجه قليلا ، بعد عدوه مسافة ميلين ، فكبح عنان جواده ، وتنفس الصعداء ، براحة ، ونظر حواليه إلى وجوه مرافقيه ، وهم جميعاً فى مثل حيويته وشبابه . تشارتوريسكى ، ونوفوسيلتسيف ، والأمير فولكونسكى ، وستروجونوف ، والآخرون ، كلهم شبان مرحون باذخو الملبس ، على صهوات جياد منتعشة فخمة حسنة المرانة وإن كانت قد حميت قليلا من عدوها ، يتبادلون التعليقات ويبتسمون ، وقد وقفوا خلف الامبراطور . أما الامبراطور فرانسيس ، وكان فتى طويل الوجه موردّه ، فقد جلس منتصبا مشدود القامة جداً على حصانه الأسود الوسيم ، يجيل البصر حواليه بمظهر الرجل المشغول البال ، متأنياً متمهلا . وأومأ إلى أحد ياوريه البيض الحلل ، وسأله سؤالا .

وخطر للأمير أندرو وهو يرقب صديقه القديم بابتسامة لم يستطع أن يكاتم بها ، وقد تذكر لقاءه معه فى برون :

— لعله على الأرجح يسأله كم كانت الساعة عند ما بدأوا المسير .

كان مرافقو الامبراطورين هم الصفوة المنتقاة من ضباط المراسلة الشبان من الحرس ، ومن فرق الخط الأمامى ، روسيين ونمسويين . وكان بينهم سوّاس يقودون جياد الامبراطور الجميلة المعدّة للاستبدال ، وهى مغطاة بالسروج المطرزة .

وكما تهب نفحة من الهواء الطلق من الحقول عندما تنفتح نافذة ، فتدخل غرفة مكظوظة كاتمة للأنفاس ، كذلك بلغت نفحة من الشباب والنشاط والثقة فى النجاح إلى أركان حرب كوتوزوف الذين كانت تعوزهم كل بهجة ، بمقدم كل هؤلاء الشبان اللامعين ، آتين إليهم عدواً .

قال الامبراطور ألكسندر لكوتوزوف فى عجلة ، وهو يرمق الامبراطور فرانسيس بكياسة ومجاملة ، فى نفس الوقت :

— لماذا لا تبدأ ياميشيل ايلاريونوفيتش ؟[1].

فأجاب كوتوزوف ، وهو ينحنى إلى الأمام باحترام :

— إننى انتظر ، ياصاحب الجلالة .

فعبس الامبراطور قليلا ، ومد أذنه كما لو لم يكن قد سمع بوضوح .

فردد كوتوزوف :

— أنتظر ، ياصاحب الجلالة .

ولاحظ الأمير أندرو أن شفة كوتوزوف العليا قد ارتعشت على نحو غير طبيعى ، إذ قال كلمة « أنتظر » .

— لم تشكل كل الصفوف بعد ، يا صاحب الجلالة .

سمع الامبراطور الاجابة ، وكان واضحاً أنها لم ترقه ، فهز كتفيه

---

(١) اسم كوتوزوف الشخصى واسم أبيه ، وهى طريقة أكثر شيوعاً فى اللغة الروسية من طريقة استخدام اللقب .

المدورتين قليلا ، ورمق نوڤوسيلتسيف الذى كان بالقرب منه كما لو كان يشكو إليه كوتوزوف .

قال القيصر :

— أنت تعرفياميشيل إيلاريونوڤيتش أننا لسنا فى ساحة الامبراطورة ، حيث لا يبدأ الاستعراض إلا إذا تجمعت كل القوات .

وهو يرمق الامبراطور فرانسيس بنظرة أخرى كما لو كان يدعوه ، إن لم يكن ليشترك فى الحديث ، فعلى الأقل أن يصغى لما كان يقول . على أن الامبراطور فرانسيس ظل يجيل البصر حواليه ، ولا يصغى .

فقال كوتوزوف بصوت رنان ، حتى يستبعد إمكان ألا يُسمع ، فيما يظهر ، وارتعش شيء ما فى وجهه مرة أخرى :

— ذلك بالضبط لماذا لا أبدأ يامولاى .

وقال بوضوح وجلاء :

— ذلك بالضبط لماذا لا أبدأ يامولاى ، لأننا لسنا فى استعراض ، ولسنا فى ساحة الامبراطورة .

وترامق الجميع بين مرافقى الامبراطور ، بنظرات سريعة تنم عن اللوم وعدم الرضا . وكان يبدو أن نظراتهم تقول :

— مهما كان شيخاً ، فلا ينبغى ، لا ينبغى له بالتأكيد ، أن يتكلم بهذا الشكل .

نظر القيصر بحدة وانتباه فى عين كوتوزوف ، فى انتظار ما إذا كان سيقول شيئاً آخر . على أن كوتوزوف ، وقد أحنى رأسه باحترام ، كان يبدو أنه فى الانتظار كذلك . ودام الصمت نحو دقيقة .

قال كوتوزوف وقد رفع رأسه ، واتخذ ثانية مظهر جنرال غبى لا يفكر ، وإن كان مطيعاً :

— وعلى أى حال مادمتم جلالتكم تأمرون ...

ومس حصانه ، ونادى ميلورادوڤيتش ، قائد الصف ، وأصدر إليه الأمر بالتقدم .

فبدأت القوات تتحرك ثانية ، ومرت أمام الامبراطور كتيبتان من فرقة نوڤجورود ، وكتيبة من فرقة أبشيرون .

وبينما كانت كتيبة أبشيرون هذه تمر ، جاء ميلورادوڤيتش ، محمر الوجه دون معطفه الكبير ، وعلى صدره كل نياشينه ، وخصلة هائلة من الريش فى قبعته المرفوعة المائلة على جنب ، وقد أديرت أركانها إلى الأمام وإلى الخلف ، وعدا إلى الأمام بعشقة وجهد جهيد ، وكبح عنان جواده أمام الامبراطور وهو يؤدى تحية باهرة .

فقال الامبراطور :

— ليكن الله معك ياچنرال ..!

فأجاب بمرح بالفرنسية الركيكة :

— يقينى يامولاى ، أننا سنعمل كل ما سيكون فى إمكانيتنا يامولاى ..!

فارتسمت على وجوه السادة مرافقى القيصر ، ابتسامات سخرية لفرنسيته الركيكة .

وأدار ميلورادوڤيتش جواده دورة حادة ، ورابط إلى الخلف قليلا من الامبراطور . ومر جنود كتيبة أبشيرون ، فى نظام ، أمام الامبراطورين ومرافقيهما ، فى خطى سريعة جريئة ، وقد هاجهم وجود الامبراطور .

صاح ميلورادوڤيتش بصوت عال يهيج معتد بنفسه ، وواضح أنه جد منتش بصوت إطلاق النار ، وانتظار المعركة ، ومرأى جنود أبشيرون البواسلين ، زملائه منذ عهد سوڤوروف ، وهم يمرون بهذه البسالة والرشاقة أمام الامبراطورين ، حتى لقد نسى وجود العاهلين ، فصاح :

ــ يا أولاد ..! ليست هــذه القرية الأولى التى كان عليكم أن تأخذوها .

فهتف الجنود :

ــ يسعدنا أن نفعل أفضل ما نستطيع .

فأجفل جواد الامبراطور للصيحة المباغتة . كان هــذا الجواد الذى حمل العاهل فى الاستعراضات ، فى روسيا ، يحمله أيضا هنا فى ساحة أوسترلتز ، ويتحمل ضربات قدمه اليسرى غير المقصودة ، ويصيخ أذنيه لصوت الطلقات ، كما كان يفعل فى ساحة الامبراطورة ، دون أن يعى دلالة إطلاق النار ، ولا دنو حصان الامبراطور فرانسيس الأسود ، ولا كل ما كان راكبه يقول أو يفكر أو يحس فى ذلك اليوم .

استدار الامبراطور ، بابتسامة ، إلى أحد تابعيه ، وقال له شيئاً ، مشيراً إلى جنود « أبشيرون » الباسلين .

الفصل السادس عشر

ركب كوتوزوف ، يصحبه ياوروه ، بسرعة المشى على القدم ، خلف حملة البنادق .

فلما ذهب أقل من نصف ميل ، فى مؤخرة الصف ، وقف عند بيت مستوحد مهجور لعله كان خاناً ، فى ذات يوم ، حيث كان الطريق يتشعب إلى طريقين كلاهما يفضى إلى سفح الربوة ، وكانت القوات تسير فى كليهما .

وكان الضباب قد أخذ يتشتت ، وقوات العدو تبدو مرئية بالكاد ، من الآن ، على نحو ميل ونصف ، على المرتفعات المواجهة . أما إلى اليسار فى أسفل ، فقد استبان صوت إطلاق النار وتزايد وضوحاً . كان كوتوزوف قد توقف ، وكان يتكلم إلى جنرال نمسوى . وكان الأمير أندرو خلفهما بقليل ، ينظر إليهما ، فالتفت إلى ياور يطلب منه نظارة ميدان .

قال الياور ناظراً ، لا إلى القوات التى تقع فى البعد ، بل إلى سفح الربوة أمامهما :

— انظر ، انظر ..! إنهم الفرنسيون ..!

فقبض الجنرالان ، والياور ، على نظارة الميدان ، والواحد منهم يحاول أن يختطفها من الآخر . واستحال مظهر وجوههم جميعاً ، بغتة ، إلى الروع والاستفظاع . كان المفروض أن الفرنسيين على بعد ميل ونصف ، ولكنهم بغتة وعلى غير انتظار ظهروا أمامنا مباشرة .

قالت أصوات متغايرة :

— أهو العدو ؟ لا ..! نعم أنظر إنه هو ..! بالتأكيد ..! ولكن كيف ذلك ..؟

رأى الأمير أندرو بالعين المجردة ، تحتهما إلى اليمين ، على مسافة لا تبعد عن خمسمائة خطوة عنهما ، صفًّا فرنسيا كثيفا يرتقى الربوة ليلتقى بجنود أبشيرون .

ففكر الأمير أندرو :

— ها هى ذى ..! جاءت اللحظة الحاسمة ..! جاء دورى ..!

وضرب حصانه ، وركب إلى كوتوزوف .

وصاح :

— يجب أن يوقَف جنود أبشيرون يا صاحب السعادة .

على أنه فى تلك اللحظة نفسها انتشرت سحابة من الدخان حولهم ، وسُمع إطلاق النيران قريبا شديد القرب ، وهتف صوت مفزَّع من الذعر الساذج ، لا يبعد خطوتين من الأمير أندرو :

— يا إخوان ..! كل شىء ضاع ..!

وأخذ الجميع يجرون بعد هذا الصوت ، كما لو كان صيحة أمر .

وكانت هناك حشود مضطربة متزايدة باستمرار تجرى راجعة إلى

حيث مرّت القوات منذ خمس دقائق أمام الامبراطورين . لم يكن صعباً فحسب أن يوقف ذلك الحشد ، بل كان من المستحيل ألا ينجرف المرء معه راجعاً . ولم يحاول بولكونسكى إلا أن يحتفظ بصلته به ، وكان ينظر حواليه محيَّراً وقد أعياه أن يفهم ماذا يحدث أمامه . كان نسفيتسكى ، وهو مغضب الوجه محمرّه ، على غير ما هو مألوف عنه ، يهتف بكوتوزوف أنه إذا لم يركب مبتعداً على الفور ، فسوف يؤخذ أسيراً بالتأكيد . وبقى كوتوزوف فى نفس المكان ، ودون أن يجيب ، أخرج منديلا . كان الدم يسيل من وجنته . فشق الأمير أندرو طريقه اليه .

وسأل ، وقد أوشك أن تعجزه السيطرة على رعشة فكه الأسفل :

— أنت مجروح ؟

قال كوتوزوف ، يضغط المنديل على خده الجريح ، ويشير إلى الجنود الهاربين :

— الجرح ليس هنا ، إنه هناك ..!

وهتف :

— أوقفوهم ..!

وفى نفس الوقت ، فمساه تحقق أنه من المستحيل إيقافهم ، نخس جواده وركب متجها إلى اليمين .

فلحقته موجة جديدة من الغوغاء الهاربين ، وحملته معها راجعة .

كان العساكر يجرون فى حشد بلغ من الكثافة والتزاحم ، أن من يحدقون به كان يشق عليه جداً أن يفلت من وسطهم . كان أحدهم يهتف :

— أسرع ..! لماذا تعطلنا ؟

وآخر فى نفس المكان يستدير ، ويطلق رصاصة فى الهواء ، وثالث كان يضرب الحصان الذى يركبه كوتوزوف نفسه . فلما استطاع كوتوزوف بجهد جهيد ، أن يبتعد إلى اليسار عن هذا الفيضان من الرجال ،

ركب ، وقد نقص مرافقوه إلى أكثر من النصف ، نحو صوت نيران الدفعية القريب . وشق الأمير أندرو طريقه بالقوة ، من وسط حشد الهاربين ، وعالج أن يظل قريباً من كوتوزوف ، فرأى على منحدر التل وسط الدخان بطارية روسية ، مازالت تطلق النار، والفرنسيين يجرون صوبها ، وقد وقف إلى أعلى بعض المشاة الروسيين ، لا يتقدمون لحماية البطارية ولايتراجعون مع الحشد الهارب . وابتعد جنرال راكب عن المشاة ، واقترب من كوتوزوف . لم يبق من مرافقي كوتوزوف إلا أربعة . وكانوا جميعاً شاحبين ، يتبادلون النظرات في صمت .

شهق كوتوزوف قائلا لقائد الفرقة ، مشيراً إلى الجنود الهاربين :

— أوقف هؤلاء التعساء ...!

على أن الرصاص انطلق في تلك اللحظة ، كما لو كان ليعاقبه على تلك الكلمات ، وهو يئز عبر الفرقة وعبر مرافقي كوتوزوف ، كأنه سرب من الطيور الصغيرة .

كان الفرنسيون قد هاجموا البطارية ، فلما رأوا كوتوزوف أخذوا يطلقون عليه النار . وبعد هذه الموجة من النيران قبض قائد الفرقة على ساقه ، وسقط كثير من الجنود ، وكان هناك ملازم ثان يمسك العلم فتركه يقع من يديه . وترنح العلم ، وسقط ، ولكنه تعلق ببنادق أقرب الجنود ، فأخذ الجنود يطلقون النار دون انتظار أوامر .

ندّ عن كوتوزوف أنين يائس :

— أوه ..! أوه ..! أوه ..!

وتلفت حواليه وهمس ، وصوته يرتعش من حسه بوهن الشيخوخة :

— بولكونسكي ..! بولكونسكي ..!

مشيراً إلى الكتيبة التي شاعت فيها الفوضى ، وإلى العدو :

— ماهذا ؟

لـكنه قبل أن يكمل كلمته ، كان الأمير أندرو وقد أحس نفسه يغص بدموع العار والغضب ، قد وثب من على حصانه ، وجرى إلى العلم .

وصاح بصوت ثاقب كأنه صوت طفل :

— إلى الأمام .. يا أولاد ..!

وخطر له ، وهو يمسك بسارية العلم ، ويسمع ، بسرور ، صفير الرصاص المسدد إليه ، فيما هو واضح :

— ها هى ذى ..!

وسقط كثير من الجنود .

صاح الأمير أندرو :

— هورّاه ..!

وهو لا يكاد ينهض بحمل العلم الثقيل ، وأخذ يجرى إلى الأمام بثقة كاملة فى أن الـكتيبة كلها سوف تتبعه .

وهو فى الحق لم يجر إلا بضع خطوات وحده . تحرك أحد الجنود ، ثم آخر ، ثم سرعان ما جرت الـكتيبة كلها إلى الأمام هاتفة «هورّاه..!» ولحقته وتجاوزته . وجرى ضابط صف الـكتيبة وأخذ العلم الذى كان يترنح ، من ثقله ، من يدى الأمير أندرو ، ولـكنه قتل على الفور . فقبض الأمير أندرو على العلم ثانية ، وجرّه من ساريته ، وجرى مع الـكتيبة . ورأى ، أمامه ، رجال مدفعيتنا ، بعضهم يقاتلون ، بينما هجر البعض الآخر مدافعهم ، وكانوا يجرون نحوه . ورأى أيضاً جنود المشاة الفرنسيين يستولون على جياد المدفعية . ويديرون المدافع فى الاتجاه العكسى كان الأمير أندرو والـكتيبة ، قد بلغوا الآن إلى مسافة عشرين خطوة من المدفع . وسمع صفير الرصاص فوقه دون توقف ، وكان الجنود إلى يمينه ويساره يئنون باستمرار ويقعون . لـكنه لم ينظر إليهم : كان لا يرى إلا مايدور أمامه عند البطارية . ورأى الآن بوضوح قامة مدفعىّ أحمر الشعر

وقد اعوجت قبعته على رأسه ، يجذب أحد طرفى خرقة الدفع ، بينما يشد جندى فرنسى الطرف الآخر. وكان بوسعه أن يرى بوضوح نظرة الذهول والغضب معاً فى وجهى هذين الرجلين اللذين لم يكونا ، فيما هو واضح ، مدركيْن ماذا يفعلان .

وخطر للأمير أندرو وهو يحدق إليهما :

— ماذا هما بسبيله ؟ لماذا لا يجرى المدفعى الأحمر الشعر هارباً ، فهو غير مسلح ؟ لماذا لا يطعنه الفرنسى ؟ لن يفلت قبل أن يتذكر الفرنسى حربته ، ويطعنه .

وفى الحق جاء جندى فرنسى آخر ، يجرّ بندقيته ، فجرى إلى الرجلين المتصارعين ، وكان مصير المدفعى الأحمر الشعر على وشك أن يتقرر ، بعد أن ظفر بخرقة الدفع ، دون أن يتحقق بعد ماذا ينتظره . لكن الأمير أندرو لم ير كيف انتهت الواقعة . فقد خيل له كما لو أن أحد الجنود القريبين منه قد ضربه على رأسه بكل قوة هراوة غليظة . وأوجعه ذلك قليلا ، لكن أنكى ما فى الأمر أن الألم شتت انتباهه وحال دونه وأن يرى ما كان ينظر إليه .

وخطر له :

— ما هذا ؟ أأنا أسقط ؟ إن ساقاى تتخاذلان .

وسقط على ظهره . فتح عينيه ، آملا أن يرى كيف انتهى صراع الفرنسيين مع رجال المدفعية ، وما إذا كان المدفعى الأحمر قد قتل أو لم يقتل ، وما إذا كان المدفع قد استولى عليه أم أنقذ . لكنه لم ير شيئاً . لم يكن فوقه الآن إلا السماء ، السماء العالية السامقة ، ليست بصافية ، لكنها سامقة شاهقة الارتفاع ، تنزلق عليها ، فى تؤدة ، سحابات شهباء .

فكر الأمير أندرو :

— يا للهدوء .. يا لروعة هذه السكينة ، والسلام ، والرصانة ..!

ما أبعد ذلك عما كان يحدث عندما جريت ، عندما جرينا ، نهتف ونقاتل ، ما أبعده عما كان يحدث عند ما راح الفرنسى والمدفعى يتصارعان بوجوه خائفة غاضبة ، على خرقة المدفع ، وما أشد اختلاف ذلك عن انزلاق هذه السحابات فى السماء العالية التى بلا حدود ..! كيف حدث أننى لم أر هذه السماء العالية من قبل ؟ وما أسعدنى بأن وجدتها فى النهاية ..! نعم ..! كل شىء باطل ، كل شىء زيف ، إلا هذه السماء بلا حدود . لا شىء هناك ، لا شىء ، إلا هذا . لكن هذا أيضاً لا يوجد ، لا شىء هناك إلا الهدوء والسلام والسكينة . الحمد لله ..!

الفصل السابع عشر

لم تكن المعركة قد بدأت فى جناحنا الأيمن الذى يقوده باجراتيون ، حتى الساعة التاسعة . كان الأمير باجراتيون لا يريد أن يلبى طلب دولجوريكوف فى أن يبدأ المعركة ، وكان يروغ أن يتحامى بنفسه عن المسئولية ، فاقترح على دولجوريكوف أن يرسل ليستطلع رأى القائد العام . وكان باجراتيون يعرف أنه لما كانت المسافة بين الجناحين تزيد عن ستة أميال ، فلو لم يقتل الرسول — وسوف يقتل على الأرجح الغالب — ولو أنه عثر على القائد العام — وسوف يكون ذلك شاقاً جداً — فهو على أى حال لن يعود قبل المساء .

أجال باجراتيون عينيه الكبيرتين الناعستين اللتين لا تعبير فيهما ، فى مرافقيه ، فكان أول ما استرعى عينيه وجه روستوف الصبيانى ، مبهور الأنفاس من الانفعال والأمل ، فأرسله إلى القائد العام .

قال روستوف ويده إلى قبعته :

— فاذا التقيت بصاحب الجلالة قبل أن ألتقى بالقائد العام ، يا صاحب السعادة ؟

قال دولجوريكوف مقاطعاً باجراتيون فى عجلة :

ـــ تستطيع أن تبلغ الرسالة لصاحب الجلالة .

كان روستوف بعد أن انتهت نوبة حراسته قد استطاع أن ينام بضع ساعات قبل الصباح ، وكان يحس نفسه مبتهج الصدر ، جسوراً ، ومستقر العزم ، فى حركاته مرونة ولدونة ، وعنده إيمان فى حظه الحسن ، وفى حال ٍ على العموم ، من شأنها أن يبدو كل شيء ممكناً ، ساراً ، ويسيراً هيناً .

كانت كل رغباته تتحقق هذا الصباح : فستحدث معركة شاملة يأخذ فيها بقسط ، وفضلا عن ذلك فهو مراسلة لأشجع القواد . ويزيد عن ذلك أنه ُيبعث به برسالة إلى كوتوزوف ، وعساها تكون إلى الامبراطور بنفسه . وكان الصباح مشرقاً ، وهو يمتطى صهوة جواد حسن ، وقلبه زاخر بالفرح والسعادة . فلما تلقى الأمر أطلق لجواده العنان ، وراح يعدو على طول خط الجيش . وكان يركب أولا فى محاذاة قوات باجراتيون ، ولم تكن قد تقدمت بعد للقتال بل كانت تقف بلا حراك ، ثم أتى إلى المنطقة التى يشغلها فرسان أوفاروف . فلاحظ هنا حركة وجيشانا وعلامات اتخاذ الأهبة للموقعة ، وبعد أن تجاوز فرسان أوفاروف سمع بوضوح صوت إطلاق المدافع والبنادق أمامه . واطرد ارتفاع صوت النيران .

فلم تكن تسمع الآن ، فى هواء الصباح المنعش ، طلقتان أو ثلاثة من طلقات البنادق فى فترات متناوبة ، كما كان يحدث من قبل ، تتبعها طلقة مدفع أو طلقتان ، بل تسمع قعقعة موجات إطلاق البنادق من منحدرات الربوة قبل براتسبين ، يقطعها دوى المدافع متلاحقاً حتى لم يكن ينفصل دوى الطلقة منها عن الآخر ، بل تمتزج جميعا فى زئير متصل شامل .

وكان بوسعه أن يرى هبات دخان البنادق يبدو أنها تلاحق إحداها الأخرى على سفح الربوة ، وسحابات من دخان المدافع تتدحرج وتنتشر وتمتزج إحداها بالأخرى . وكان بوسعه أيضا ، من ومض حراب البنادق

الظاهرة فى وسط الدخان ، أن يتبين حشوداً تتحرك من المشاة ، وصفوفاً ضيقة من المدفعية بصناديقها الخضراء .

كفَّ روستوف حصانه لحظة على أكمة صغيرة ، ليرى ماذا يدور ، على أنه مهما أجهد انتباهه لم يستطع أن يفهم أو يتبين شيئاً مما يجرى : كان هناك فى الدخان رجال من أحد الفريقين يتحركون ، وأمامهم وخلفهم تتحرك صفوف من الجنود ، ولكن لِمَ ، وإلام ، ومن ..؟ كان مستحيلا أن يتبين ذلك . لم تكن هذه المشاهد أو الأصوات تخلف عنده أثراً من شأنه أن يخيفه أو يحزنه ، بل كانت على العكس تستحث طاقته وعزمه .

وكان يهتف فى نفسه ، لهذه الأصوات :

— هيا ..! هيا ..! اضربوهم ..!

وأخذ يعدو ثانية على طول الخط ، نافذاً يتغلغل فى المنطقة التى اشتبك فيها الجيش فعلا فى المعركة .

وخطر لروستوف :

— كيف سيكون الحال هناك ، لست أدرى ، لكن كل شىء سيكون على مايرام..!

وبعد أن مر بجانب من القوات النمسوية لاحظ أن الجانب التالى من الخط كان مشتبكا بالفعل فى المعركة .

وخطر له :

— هذا أفضل ..! سأراها عن كثب ..!

كان يركب على الخط الأمامى تقريباً وجاءت طائفة من الجنود تعدو نحوه كان هؤلاء هم جنودنا من فرقة الأوهلان يرجعون عن الهجوم ، وقد اضطربت صفوفهم ، فتنحى روستوف عن طريقهم ، ولاحظ عن غير عمد ، أن أحدهم ينزف ، وواصل عدوه .

وخطر له :

— لا شأن لي بذلك .

لم يكد يعدو بضع مئات من الأمتار بعد ذلك حتى رأى إلى يساره ، على عرض الميدان بأكمله ، خشداً هائلا من الفرسان في حلل بيضاء باهرة يركبون جياداً سوداء ، منطلقين خبباً نحوه مباشرة وعبر طريقه . فأطلق روستوف لحصانه العنان يعدو بأقصى سرعته حتى يخرج عن طريق هؤلاء الجنود ، وكان ليخرج فعلا عن طريقهم لولا أن ظلوا يزيدون من سرعتهم حتى كانت بعض الجياد تنطلق عدواً بالفعل . وسمع روستوف ارتطام سنابك خيولهم بالأرض ، وصلصلة سيوفهم ، ورأى جيادهم ، وقاماتهم ، بل ووجوههم ، متزايدة الوضوح . كانوا فرسان حرسنا ، يتقدمون للهجوم على الفرسان الفرنسيين الذين كانوا يجيئون لملاقاتهم .

كان فرسان الحرس ينطلقون عدواً ، وإن كانوا مايزالون مع ذلك يشدون أعنة جيادهم . وكان بوسع روستوف من الآن أن يرى وجوههم ، وسمع صيحة الأمر :

— اهجم ..!

يهتف بها ضابط وهو يحث جواده الأصيل حتى ينطلق بأقصى سرعته .

نخشى روستوف أن يطأوه أو يجرفوه معهم للهجوم على الفرنسيين ، وانطلق يعدو على الجبهة بأقصى ما يسع جواده أن يعدو ، لكنه مع ذلك لم يتح له الوقت أن يتحاماهم .

وأقبل آخر فرسان الحرس ، وهو فتى ضخم ترك الجدرى ندوبه في وجهه ، وعبس مغضباً إذ رأى روستوف أمامه ، فقد كان سيصطدم به لا محالة . وكان هذا الحارس بالتأكيد ليقلب روستوف وحصانه بدوى على أعقابهما — أحس روستوف بنفسه دقيقاً ضئيلا واهناً بإزاء هذه العمالقة من الناس والخيل — لو لم يخطر لروستوف أن يشهر سوطه أمام عيني حصان الفارس . فأجفل الحصان الأسود الثقيل ، المرتفع القامة ستة عشر شبراً ،

ودفع بأذنيه إلى الخلف ، لكن الفارس المجدور نخسه بمهمازه الضخم نخساً عنيفاً ، فرفع الحصان ذيله ومد عنقه ، وانطلق يعدو وقد زاد من سرعته . وما كاد فرسان الحرس يتجاوزون روستوف ، حتى سمعهم يصيحون «هورّاه ..!» ونظر خلفه فرأى صفوفهم الأمامية مختلطة بفرسان أجانب لهم شرائط على الكتف حمراء فلعلهم فرنسيون . ولم يستطع أن يرى المزيد ، إذ بدأت المدافع على الفور تنطلق من مكان ما . وغشى الدخان كل شيء .

فى تلك اللحظة ، إذ تجاوزه فرسان الحرس ، واختفوا فى الدخان ، تردد روستوف بين أن يتبعهم أو يذهب إلى حيث كان موفداً . كان ذلك هو الهجوم الباهر الذى قام به فرسان الحرس وأدهش الفرنسيين أنفسهم وروّع روستوف فيما بعد عند ما سمع أن ثمانية عشر فقط كتبت لهم النجاة ، بعد الهجوم ، من كل ذلك الحشد من الرجال الضخام الوسام ، من كل أولئك الشبان والضباط الأثرياء اللامعين الذين انطلقوا يعبرون مارين به ، على جيادهم التى يساوى الواحد منها ألف روبل .

وفكّر روستوف وهو يواصل عدوه :

— لماذا أحسدهم ؟. لم تضع فرصتى ، وعساى أرى الامبراطور حالا ..!

فلما حاذى مشاة الحرس ، لاحظ أن طلقات المدافع تنطلق حوالبهم وبالقرب منهم ، ولم يكن يحسها لأنه يسمع صوتها بقدر إحساسه بها إذ يرى القلق على وجوه الجنود ، ورصانة الحرب غير الطبيعية على وجوه الضباط .

وعند ما كان يمر خلف أحد صفوف فرقة من مشاة الحرس ، سمع صوتاً يناديه باسمه :

— روستوف ..!

فأجاب دون أن يتعرف على بوريس :

BIBLIOTH

— ماذا ؟

قال بوريس بتلك الابتسامة السعيدة التي ترى على وجوه الشبان بعد أن يجتازوا تجربة خط النار للمرة الأولى :

— اسمع ، كنا فى الخط الأمامى ! وقامت فرقتنا بالهجوم ..!

فوقف روستوف . وقال :

— حقاً ؟ وكيف كان الحال ؟

قال بوريس متوفزاً بالحيوية وقد بدأ يثرثر :

— رددناهم إلى الخلف ..! هل تتصور ..؟

وأخذ يصف كيف أن الحرس ، بعد أن اتخذوا مواقفهم ، ورأوا أمامهم جنوداً ، ظنوهم نمسويين ، واكتشفوا دفعة واحدة من طلقات المدافع التي أطلقتها هذه الجنود ، أنهم كانوا فى الجبهة الأمامية ، وعليهم أن يشتبكوا فى المعركة على غير انتظار . وهمز روستوف حصانه ، دون أن يسمع إلى بوريس حتى النهاية .

سأله بوريس :

— إلى أين أنت ذاهب ؟

— برسالة إلى صاحب الجلالة .

فقال بوريس ، وقد ظن روستوف قال « صاحب السمو » :

— ها هو ذا ..!

وأشار إلى الجراندوق الذى كان يقف بكتفيه العاليتين ، وعبوس على وجهه ، على بعد مائة خطوة منهم ، فى خوذة وسترة فرسان الحرس ، وهو يهتف بشىء ما إلى ضابط نمسوى شاحب الوجه يرتدى حلة بيضاء .

قال روستوف ، وهو يهم بأن يهمز حصانه :

— هذا الجراندوق ، وأنا أريد القائد العام أو الامبراطور .

صاح بيرج وقد أقبل يجرى من الجانب الآخر ، فى مثل لهفة بوريس وحماسته :

— يا كونت ..! يا كونت ..! جرحت فى يدى اليمنى ..!

وأظهر يده النازفة المعصوبة بمنديل .

— وبقيت مع ذلك فى الجبهة . وأمسكت بسيفى بيدى اليسرى ، يا كونت . كانت كل عائلتنا — ڤون بيرج — فرساناً ..!

وقال شيئاً آخر لكن روستوف لم ينتظر حتى يسمعه ، وابتعد .

فلما مرّ بالحرس ، وعبر أرضاً خاوية ، أراد روستوف أن يتقى المرور أمام الخط الأمامى كما فعل عندما هجم فرسان الحرس ، فاقتفى خط جنود الاحتياطى ، ودار دورة واسعة حول البقعة التى كان يسمع فيها صوت أحمى نيران البنادق والمدافع . وبغتة سمع نيران البنادق وثيقة القرب أمامه وخلف جنودنا ، حيث لم يكن يتوقع أبداً أن يكون العدو .

ففكر :

— ماذا يمكن أن يكون ذلك ؟ العدو فى مؤخرة جيشنا ..؟ مستحيل !

وبغتة استأثرت به نوبة من الهلع على نفسه وعلى مصير المعركة كلها .

وفكر :

— ولكن مهما كان من أمر ، فلا محل الآن للدوران حول المعركة . علىّ أن أبحث عن القائد العام هنا فاذا ضاع كل شىء فلأهلك مع الآخرين .

وتوطد نذير الشر الذى حل فجأة بروستوف ، واطرد يقينه به ، كلما أبعد راكباً فى المنطقة التى تقع خلف قرية براتسبين وقد كانت مكتظة بالجنود من كل الضروب والشكول .

ولم يفتأ روستوف يتساءل وهو يلتقى بالجنود الروس والنمسويين يجرون ، فى حشود مضطربة ، فى طريقه :

— ما معنى هذا ؟ ما هذا ؟ على من يطلقون النار ؟ من يطلق النار ؟

فكانت الإجابة التى يسمعها ، بالروسية والألمانية والتشيكية ، من الهاربين الذين كان فهمهم لما يحدث بقدر فهمه :

— الشيطان يعرف ! لقد قتلوا كل الناس ..! ضاع الآن كل شىء ..!

صاح واحد منهم :

— اقتلوا الألمان ..!

أخذهم الشيطان ، الخونة ..!

فتمتم ألمانى ، بلغته :

— إلى المشانق بالروس ..!

ومر على الطريق كثير من الجرحى ، وامتزجت فى اللغط الشائع كلمات الشتيمة والسباب ، والصرخات ، والأنات ، ثم خبا إطلاق النار ، وعرف روستوف ، فيما بعد ، أن الجنود الروس والنمسويين كانوا يطلقون النار على بعضهم البعض .

وكان يدور فى ذهنه :

— يا إلهى ، ما معنى ذلك كله ؟ وهنا ، حيث قد يراهم الامبراطور فى أية لحظة ... ولكن لا ، أولئك لاشك حفنة من الأوغاد . وسينتهى ذلك سريعاً . لا يمكن أن يكون الأمر كذلك ، لا يمكن .. يجب أن أمر بهم سريعاً ، سريعاً ..!

لم يكن من الممكن أن تنفذ إلى ذهن روستوف فكرة الهزيمة والهرب ، وعلى أنه رأى المدافع الفرنسية والقوات الفرنسية على مرتفعات براتسبين حيث كان قد صدر إليه الأمر أن يبحث عن القائد العام ، بالضبط ، فإنه لم يستطع ، ولم يشأ أن يصدق ذلك ..

الفصل الثامن عشر

كان الأمر قد صدر إلى روستوف بأن يبحث عن كوتوزوف ، والامبراطور ، بالقرب من قرية براتسبين . إلا أنهما لم يكونا هناك ، بل لم يكن هناك ضابط واحد من ضباط القيادة ، وإنما هي حشود دبت فيها الفوضى من قوات متباينة الأشكال ، فاستحث جواده الذى حلّ به الرَهَق من الآن ، حتى يتجاوز هذه الحشود سريعاً ، على أنه كلما أبعد ، زاد اضطرابها وفوضاها . كان الطريق الرئيسى الذى جاء منه مكتظاً بالعربات من كل الأنواع ، والجنود الروس والنمسويين من كل الأسلحة ، بعضهم جرحى والبعض غير جريح . وكانت هذه الكتلة بأكملها تطن وتتدافع فى اختلاط ، تحت تأثير طلقات الدافع المخيف ، منطلقة من البطاريات الفرنسية الواقعة على مرتفعات براتسبين .

وكان روستوف لا يفتأ يسأل كل من استطاع أن يوقفه :

— أين الامبراطور ؟ أين كوتوزوف ؟

لكنه لم يظفر بإجابة من أحد.

فأمسك بجندى من ياقته ، فى آخر الأمر ، وأرغمه على الإجابة .

قال الجندى ، ضاحكا لسبب ما ، وقد نفض نفسه ليخلص من قبضته :

— إيه يا أخى ..! لقد هربوا جميعاً منذ زمن طويل ..!

فترك روستوف الجندى الذى كان ثملا فيما هو واضح ، وأوقف حصان سائس لإحدى الشخصيات الهامة فيما يبدو ، وأخذ يستجوبه .. فأعلن الرجل أن القيصر قد ركب عربة منذ نحو ساعة ، بأقصى سرعة ، على نفس هذا الطريق ، وأنه جريح جرحاً خطراً .

قال روستوف :

— لا يمكن ..! لابد أنه شخص آخر .

فأجاب الرجل بابتسامة سخرية واعتداد بالنفس :

— رأيته بنفسي ..! وأنا أعرف الامبراطور الآن ، بعدما رأيته في بطرسبرج مرات عديدة . رأيته كما أراك بالضبط ... كان يجلس هناك في العربة شاحباً جداً . وكيف جعلوا الخيل الأربعة تطير . ! يا إلهي .. مرّوا بنا يفرقعون ..! إنني أعرف الآن الخيل الامبراطورية ، وإيليا إيڤانيتش . لست أظن إيليا إيڤانيتش يسوق عربة أي شخص غير القيصر ..!

فأطلق روستوف الحصان ، وهمّ بأن يواصل سيره ، إذ توجه إليه بالخطاب ضابطٌ جريح مارّ ، وسأله :

— مَنْ تريد ؟ القائد العام ؟ قتلته طلقة مدفع — ضرَبته في صدره أمام فرقتنا .

فصححه ضابط آخر :

— لم يُقتل ، جُرح ..!

سأل روستوف :

— مَن ؟ كوتوزوف ؟

— ليس كوتوزوف . . ولكن ما اسمه .. حسناً ، لا يهم . . لم يبق منهم الكثير أحياء . اذهب من هذا الطريق ، إلى تلك القرية ، كل القواد هناك .

وأشار الضابط إلى قرية هوسچيراديك ، وتابع سيره .

فركب روستوف ، بسرعة المشي على القدم ، وهو لا يدري لِمَ يذهب الآن ، ولمن . فالامبراطور جريح ، والمعركة قد خسرناها . كان مستحيلا أن يكون ذلك الآن موضع شك . ركب روستوف في الاتجاه الذي أشير به عليه ، حيث رأى أبراجا ، وكنيسة . ما الحاجة للعجَلة ؟ ماذا يقول الآن للقيصر أو لكوتوزوف ، حتى لو كانوا أحياء وغير جرحى ؟

هتف به جندي :

— خذ هذا الطريق يا صاحب السعادة ..! وإلا قُتلت في هذا

الطريق على الفور ..! سيقتلونك هناك ..!

قال آخر :

— أوه ، عمّ تتكلم ؟ أين يذهب ؟ هذا طريقٌ أقرب .

وتأمل روستوف قليلا ، ثم ذهب فى الاتجاه الذى قيل له أنه سيُقتل فيه .

وكان يدور بذهنه :

— كل شيء سواء الآن . فإن كان الامبراطور جريحاً ، أينبغى لى أن أحاول إنقاذ نفسى ؟

وواصل ركوبه إلى المنطقة التى هلك فيها أكبر عدد من الجنود ، فى فرارهم من براتسبين . لم يكن الفرنسيون قد احتلوا بعد تلك المنطقة ، وكان الروس — السالمين منهم والجرحى بجراح طفيفة — قد غادروها منذ زمن طويل ، وفى كل فدانين ، على طول الميدان وعرضه رَقَد نحو عشرة إلى خمسة قتلى وجرحى ، كأكوام من السباخ فى حقلٍ معنىٍّ به . كان الجرحى يزحفون معاً ، مثنى وثلاثاً ، وكان بالوسع أن تسمع صرخاتهم وأناتهم المحزنه ، مصطنعة فى بعض الأحيان — أو هذا ماخيّل لروستوف . فأطلق حصانه يجرى خبباً حتى يتحامى رؤية كل هؤلاء الرجال الذين يتعذبون ، واستشعر الخوف ، لا على حياته ، بل على الشجاعة التى كان بحاجة إليها ، وقد كان يعرف أنها لن تصمد لمرأى هؤلاء التعساء .

وكان الفرنسيون قد كفوا إطلاق النار على هذه الساحة التى انتثر فيها القتلى والجرحى ، حيث لم يبق أحدٌ تطلق عليه النار ، فلما رأوا ياوراً يركب عبرها ، سددوا إليه مدفعاً واطلقوا عدة طلقات . وامتزج فى ذهن روستوف إحساسه بهذه الأصوات الصافرة المروّعة ، وبالجثث المطروحة حواليه ، فى شعورٍ واحدٍ بالهلع والرثاء لنفسه . وتذكر خطاب أمه الأخير .

وخطر له :

— ماذا كانت تحس ، لو أنها رأتنى هنا الآن ، فى هذه الساحة ، وهذا المدفع مسدّد نحوى ؟

كان فى قرية هوسچيراديك جنود من الروس تقهقروا عن ساحة القتال ، وإن كان قد اختلط نظامهم نوعا ، فقد كان أهون اختلاطا . لم تكن المدافع الفرنسية تبلغ القرية ، وكانت نيران البنادق تُسمع بعيدة نائية . وهنا كان الجميع يرون ، ويقولون ، بوضوح ، أن المعركة قد ضاعت . ولم يستطع أحد ممن سألهم روستوف أن يخبره أين كان الامبراطور أو كوتوزوف . قال البعض أن النبأ القائل بأن الامبراطور قد جُرح نبأ صحيح ، وقال البعض الآخر أنه ليس بصحيح ، وفسر الشائعة الكاذبة التى ذاعت ، بأن عربة الامبراطور قد انطلقت فعلا من ميدان القتال تعدو وفى داخلها الماريشال الكونت تولستوى ، شاحبا ومذعوراً ، وقد هرب من ميدان القتال مع آخرين من مرافقى الامبراطور . وقال أحد الضباط لروستوف أنه رأى واحداً من القيادة العامة خلف القرية ، إلى اليسار ، فركب روستوف إلى هناك ، غير آمل أن يجد أحداً ، وإنما لمجرد أن يريح ضميره . فلما ركب نحو ميلين ، ومرّ بآخر الجنود الروس ، رأى رجلين ، بالقرب من حديقة للخضر يدور حولها خندق ، وهما على متن حصانين ، يواجهان الخندق . وبدا أحدهما ، بريشة بيضاء فى قبعته ، مألوفا عند روستوف ، أما الآخر فقد ركب إلى الخندق ، على جواد أصهب رائع ، خيّل لروستوف أنه رآه من قبل ، وضرب حصانه بمهمازه ، وأطلق له العنان ، فوثب فوق الخندق بخفة . إلا أن قليلا من تراب تفتت من حافة الخندق تحت ساقى الحصان الخلفيتين . وأدار الحصان دورة حادة ، ووثب الخندق ثانية ، وخاطب الفارس ذا الريش الأبيض بإجلال ، مقترحاً فيما يبدو أن يفعل مثله . أما الراكب — الذى كانت قامته تبدو مألوفة عند روستوف وتستأثر بانتباهه رغماً عنه — فقد أتى بحركة رفض برأسه ويده ، ومن

تلك الحركة عرف روستوف على الفور أنه العاهل المبود ، الذى ذُرفت من أجله الدموع .

وفكر روستوف :

ـــ ولكن أيمكن أن يكون هو؟ وحده فى وسط هذه الساحة الخاوية..!

وفى تلك اللحظة أدار ألكسندر رأسه ، فرأى روستوف القسمات المحبوبة التى كانت قد احتفرت لنفسها صورة عميقة فى ذاكرته . كان الامبراطور شاحباً ، وجنتاه متهضمتان ، وعيناه غائرتان ، وإن كان ذلك قد زاد من سحر قسماته ووداعتها . كان روستوف سعيداً ليقينه من زيف الشائعات القائلة أن الامبراطور جريح . وكان سعيداً لمرآه . وكان يعرف أن له ، بل عليه ، أن يذهب إليه مباشرة ، ويبلغ الرسالة التى أمره دولجوريكوف بابلاغها .

على أنه كما يرتجف فتىً عاشق ، وتتخاذل به أعصابه ، فلا يجسر أن يتفوّه بالأفكار التى ظل يحلم بها ليالى بطولها ، بل يتلفت حوله متلمساً عوناً ، أو سانحة تتيح له أن يتأخر أو أن يفر هارباً ، عند ما تأتى اللحظات التى طالما تاق إليها ، فاذا هو وحده مع حبيبته . كذلك روستوف وقد بلغ الآن ما كان يتوق إليه أكثر مما يتوق لشىء فى العالم بأسره ، لم يعرف كيف يدنو من الامبراطور ، وخطر له ألف سبب يصوّر له أنه من غير اللائق ، ولا من المناسب ، بل من المستحيل أن يفعل

ـــ ماذا ؟ إن ذلك يبدو كما لو كنت مسروراً من فرصة أتيحت لى أن أستغل وحدته ويأسه . ! إن وجهاً غريباً قد يبدو له شيئاً غير سار ، ومؤلماً ، فى لحظة الحزن هذه ، وماذا بوسعى أن أقول له الآن ، فضلا عن ذلك ؟ وقلبي يخذلنى ، وجفافٌ فى فمى لمجرد مرآه ؟

ولم يعد بوسعه الآن أن يسترجع كلمة واحدة من آلاف الكلمات التى كان قد صاغها فى ذهنه لخطاب الامبراطور . كانت هذه الكلمات يقصد بها

أن تقال فى ظروف مغايرة تماماً ، وكانت ، فى معظمها ، لتقال فى لحظة النصر والظفر ، عند ما يكون روستوف ، عادة ، محتضراً يعالج الموت من أثر جراحه ، وقد شكره العاهل لأفعاله الباسلة ، وهو يعبر ، بموته ، عن الحب الذى برهنت عليه أعماله .

— ثم كيف يمكننى أن أسأل الامبراطور عن تعليماته للجناح الأيمن ، وقد بلغت الساعة الآن الرابعة تقريباً ، وضاعت المعركة ؟ لا ، يجب بالتأكيد ألا أقترب منه ، وألا أقتحم عليه أفكاره . أوثر أن أموت ألف مرة عن أن أتلقى منه نظرة قاسية أو رأيا غير مُوات .

وبعد أن قرّ روستوف على ذلك . ركب مبتعداً ، آسيا ، وقلبه ملىء باليأس ، لاينى ينظر إلى الخلف ، إلى القيصر ، وقد بقى على نفس الحال من تراوح العزم والتردد .

وفيما كان روستوف يحاجّ نفسه ، على هذا النحو ، وهو يبتعد حزينا ، حدث أن ركب الكابتن ڤون تولّ إلى نفس البقعة . فلما رأى الامبراطور أقبل عليه للفور ، وعرض خدماته ، وساعده فى عبور الخندق على قدميه ، وكان الامبراطور يبغى الراحة ويحس توعكا ، فجلس تحت شجرة تفاح . وبقى ڤون تول ، بجواره . ورأى روستوف ، من بُعد ، كيف أخذ ڤون تولّ يتكلم طويلا ، بحرارة ، إلى الامبراطور ، وكيف غطى الامبراطور عينيه بيديه ، وواضحٌ أنه يبكى ، وضغط يد ڤون تولّ .

وفكر روستوف :

— وقد كان يمكن أن أكون أنا فى محله . !

ولم يحاول أن يكبح دموع الرثاء للامبراطور ، وهو يواصل سيره فى حالٍ من اليأس المطبق ، لا يعرف إلى أين ، ولِمَ يسير الآن .

وزاد من يأسه إحساسه بأن ضعفه كان علة حزنه .

فقد كان له .. ولم يكن له فحسب ، بل كان ينبغى عليه ، أن يذهب إلى

العاهل . كانت تلك فرصة فذة يبدى فيها ولاءه للامبراطور ، فلم يُفِـد منها . ودار فى ذهنه :

— ماذا فعلت ..؟

واستدار وانطلق يعدو إلى البقعة التى رأى فيها الامبراطور . على أنه لم يكن هناك الآن أحد خلف الخندق . وإنما كانت تمر بعض عربات النقل وعربات السفر . وعرف من أحد السائقين أن أركان حرب كوتوزوف ليست ببعيـدة ، وأنها فى القرية التى كانت تتجه إليها العربات . فتبعها روستوف. وكان يسير أمامه سائس كوتوزوف يقود جياداً مغطاة بسروجها . ثم تتلو ذلك عربة نقل ، كان يسير خلفها قنٌّ عجوز معوّج الساقين ، فى قلنسوة مدببة وسترة من جلد الغنم .

قال السائس :

— تيت . اسمع يا تيت ..!

فأجاب العجوز غائب الذهن :

— نعم ..؟

فقال السائس :

— تراباتيت ..!

فقال العجوز وهو يبصق غاضبا :

— أيها الأحمق ..!

ومضى بعض الوقت فى صمت ، ثم تـكررت نفس الدعابة .

* * *

قبل الخامسة مساءً كانت المعركة قد ضاعت فى كل المواقع . وكان أكثر من مائة مدفع ، من الآن ، قد وقع فى أيدى الفرنسيين .

كان برسيبيفيسكى ، وفرقته ، قد وضعوا أسلحتهم وسلّموا . وكانت الصفوف الأخرى ، بعد أن فقدت نصف رجالها ، تتقهقر فى حشود مضطربة من غير نظام .

واختلطت بقايا فرقتى لانجيرون ودوختروف، واحتشدت حول جسور وضفاف البرك بالقرب من قرية آوجيسد .

وبعد الخامسة لم يكن يسمع ، عند جسر آوجيسد ، إلا صوت مدفعية حامية يطلقهـا الفرنسيون وحدهم ، من بطاريات عديدة مصفوفة على منحدرات تلال براتسيين ، مسدّدة إلى قواتنا المتقهقرة .

وفى المؤخرة جمع دوختروف وآخرون غيره بعض الكتائب وواصلوا إطلاق نيران البنادق على فرسان الفرنسيين الذين كانوا يتعقبون جنودنا ، وكان الغسق قد بدأ يسود . وعلى جسر آوجيسد الضيق ، حيث اعتاد الطحّان العجوز ، طيلة سنوات كثيرة ، أن يجلس فى قلنسوته ذات الزر ، يصيد بالسنارة فى هدوء ، بينما يتناول حفيده ، وقد شمّر أكمام قميصه ، السمك الفضى المتخبط فيضعه فى صندوق به ماء ، على هذا الجسر الذى كان المورافيون ، سنوات طويلة ، فى قبعاتهم المشعثة وستراتهم الزرقاء ، يسوقون ، فى هدوء ، عرباتهم ذات الحصانين ، محملة بالقمح ، وقد عادوا متربّين بالدقيق الذى يبيّض عرباتهم — على هذا الجسر الضيق ، وسط العربات والمدافع ، وتحت سنابك الخيل ، وبين عجلات العربات ، احتشد الآن رجال شاهت وجوههم من خشية الموت ، يتزاحمون فيطأ أحدهم الآخر ، ويموتون وينقلون خطاهم فوق الموتى ، ويقتل أحدهم الآخر ، لا لشىء إلا ليتحركوا بضع خطوات ، ثم يلقون مصرعهم بنفس الطريقة .

وفى كل عشر ثوان تنطلق قنبلة مدفع فتضغط الهواء حولهم ، أو تنفجر قنبلة فى وسط هذا الحشد المكتظ ، تقتل البعض وتطسّ القريبين منهم بالدماء .

كان دولوخوف — وقد عاد الآن ضابطاً — جريحاً فى ذراعه ، سائراً على قدميه ، مع قائد الفرقة الذى يمتطى حصانه ، ونحو عشرة رجال من سريته ، هم كل ما بقى من الفرقة بأكملها . وقد دفعهم الحشد فانحشروا عند دنوهم

من الجسر ، وأُحدق بهم من كل جانب ، فوقفوا لأن حصاناً أمامهم سقط تحت مدفع ، وكان هناك حشد من الجنود يجرونه من تحته . وقتلت طلقة مدفع شخصاً خلفهم ، وسقط آخر أمامهم وطس دولوخوف بدمه . واندفع الحشد إلى الأمام باستماتة ، وتضاغط بعضه إلى البعض ، وتحرك بضع خطوات ، ثم وقف .

كان كل منهم يفكر :

— نتحرك مائة متر فنتخلص بالتأكيد ، نبقى هنا دقيقتين أيضاً ، فهو الموت الأكيد .

وشق دولوخوف ، وقد كان فى وسط الحشد ، طريقه إلى حافة الجسر ، وقد أطاح بجنديين من على أقدامهما ، وجرى على الجليد الزلق الذى يغطى بركة الطاحون .

وصاح وهو يثب على الجليد الذى يقرقع من تحته :

— تعالوا من هذه الناحية ..!

وهتف لأولئك الذين كان معهم مدفع :

— تعالوا من هذه الناحية ..! إنه يحتمل ..!

حمله الجليد ، على أنه كان يهتز به ويقرقع تحته ، وكان جلياً أنه سينهار لا تحت ثقل مدفع أو حشد من الجند ، بل تحت ثقله وحده . فنظر إليه الجنود ، وتزاحموا إلى الضفة ، وهم يترددون فى الخطو على الجليد ورفع الجنرال الراكب ، عند مدخل الجسر ، يده وفتح فمه ليخاطب دولوخوف . وبغتة صفرت قنبلة مدفع بلغ من انخفاضها فوق رؤوس حشد الجنود أن أحنى الجميع رؤوسهم . وارتطمت بشىء مبلل ، وسقط الجنرال من على حصانه فى بركة من الدم فلم يلق عليه أحد نظرة ، ولا فكر فى أن يرفعه .

وهتفت أصوات لاعداد لها بغتة ، بعد أن اصطدمت القنبلة بالجنرال:

— اذهبوا على الجليد ، على الجليد .! هيا .! ألا تسمعون ؟ هيا ..!

والجنود أنفسهم لا يعرفون فيمَ صياحهم ولا بمَ يصيحون .

واستدار مدفع من أواخر المدافع التي كانت توشك على الدخول إلى الجسر ، فانتقل إلى الجليد . وأخذت حشود من الجنود تجرى من الجسر على البركة المتجمدة . فانهار الجليد تحت واحد من أوائل الجنود ، وانزلقت إحدى ساقيه فى الماء ، فلما حاول أن يقيم نفسه ، سقط فيه حتى الخصر . وانكمش أقرب الجنود إليه ناكصاً ، وأوقف سائق المدفع حصانه ، لكن الصيحات كانت ما تزال تأتى من الخلف :

— على الجليد ، لماذا تقفون ؟ هيا ..! هيا ..!

وسمعت صيحات روع وفزع فى الحشد . وشوّر الجنود القريبون من المدفع بأذرعتهم وضربوا الخيل حتى يحملوها على أن تدور وتتحرك إلى الأمام . فخطت الخيل من على الضفة . والثلج الذى تماسك تحت الراجلين انهار مرة واحدة فى كتلة هائلة . واندفع نحو أربعين رجلا كانوا عليه ، بعضهم إلى الأمام وبعضهم إلى الخلف ، وأغرق بعضهم البعض .

ومازالت طلقات المدافع تصفر بانتظام ، وترتطم بالجليد وبالماء ، وفى الغالب الأعم من الأحوال تقع فى وسط الحشد الذى يغطى الجسر والبركة والضفاف .

الفصل التاسع عشر

رقدَ الأمير أندرو بولسكونسكى ، على مرتفعات براتسبين ، حيث كان قد سقط وسارية العلم فى يده ، ينزف نزفاً غزيراً ، وتند عنه ، عن غير وعى ، أنّة وديعة ، تثير الاشفاق ، كأنها من أنين الأطفال .

وكفّ عن الأنين ، قرابة المساء ، وسكن سكونا تاما . لم يعرف كم استغرقت من الوقت غيبته عن الوعى . أحسّ ثانية بغتة ، أنه يعيش ، وأنه يتألم من ألم حارق مبرّح الوجع فى رأسه .

كانت فكرته الأولى :

— أين هى ، السماء العالية التى لم أعرفها حتى الآن ، ورأيتها اليوم ؟

وفكّر :

— ولم أكن أعرف هذا العذاب أيضاً . نعم ، لم أكن أعرف شيئاً . لم أكن أعرف شيئاً على الاطلاق ، حتى الآن . ولكن أين أنا ؟

وأصاخ السمع ، وسمع صوت خيلٍ تقترب ، وأصواتاً تتكلم بالفرنسية . فتح عينيه . وفوقه ، مرة أخرى ، كانت السماء العالية وفيها سحبٌ قد ارتفعت وراحت تطفو فى أعالٍ أبعد ، وبينها تستضىء لا نهايةٌ زرقاء . لم يدر رأسه ، ولم ير أولئك الذين أقبلوا راكبين ، ووقفوا بالقرب منه ، كما يبدو من وقع السنابك وتردد الأصوات .

كان ذلك ناپليون يصحبه ياوران . كان بوناپرت ، فى طوافه بساحة القتال ، قد أصدر أوامره النهائية بتدعيم البطاريات التى تضرب جسر آوجيسد ، وكان يمر بالقتلى والجرحى الذين تركوا فى الميدان .

قال ناپليون ، وهو ينظر إلى جندى روسىّ من الرماة ، رقد على بطنه ووجهه مدفون فى الأرض ، ومؤخرة عنقه قد اسودّت ، وقد تطوّحت ذراعه وتصلبت من الآن :

— رجال مدهشين ..!

قال ياور أقبل من البطاريات التى كانت تطلق النار على آوجيسد :

— نفدت ذخيرة المدافع المرابطة فى مواقعها ، يا صاحب الجلالة .

فقال ناپليون :

— هات ذخيرة من الاحتياطى .

وبعد أن مضى بضع خطوات ، وقف أمام الأمير أندرو . وقد كان يرقد على ظهره ، وسارية العلم قد سقطت بجواره — أما العلم نفسه فقد كان الفرنسيون قد أخذوه من قبل ، تذكاراً .

وقال ناپليون وهو يحدق إلى بولسكونسكى :

— هذه ميتة رائعة ..!

فهِمَ الأمير أندرو أن ذلك قيل عنه ، وأن ناپليون قاله . سمع المتكلم يقال له « مولاى » . لكنه سمع الكلمات كما لو كان يسمع طنين ذبابة . فلم تكن تعنيه فحسب ، بل لم يلق إليها بالا ، ونسيها على الفور . كانت رأسه تحترق ، وأحس نفَسَه ينزف حتى الموت ، وكان يرى فوقه السماء البعيدة العالية الباقية أبداً . كان يعرف أن ذلك هو ناپليون — بطله — ولكن ناپليون فى تلك اللحظة بدا له مخلوقا صغيراً تافهاً بازاء ما كان يحدث الآن بين نفسه وتلك السماء العالية اللانهائية التى تطير فيها السحب . فى تلك اللحظة لم يكن يعنيه فى شىء من عساه يقف فوقه ، ولا ماذا يقال عنه ، كان يسره فقط أن ناساً يقفون بالقرب منه ، وكان يريد فقط لو أنهم ساعدوه ، وأعادوه إلى الحياة ، وقد لاحت له الحياة الآن ، ما أجملها بعد أن عرف اليوم كيف يفهمها بشكل مغاير جداً . واستجمع كل قواه ، حتى يتحرك ، ويطلق صوتاً . وحرك ساقه بوهن ، وندت عنه أنة سقيمة وهنانة أثارت شفقته هو نفسه .

قال ناپليون :

— آه ..! إنه حى . ارفعوا هذا الشاب ، واحملوه إلى مركز الإسعاف .

ولما قال ناپليون ذلك ، ركب ليلتقى بالماريشال لان الذى أقبل إلى الامبراطور راكباً وقبعته فى يده ، باسماً ، ليهنئه بالنصر .

ولم يتذكر الأمير أندرو شيئاً أكثر من ذلك .. فقد غاب عن وعيه من الألم المروع عند رفعه إلى النقالة ، وارتجاجه عند تحريكه ، وسبر جرحه فى مركز الاسعاف . ولم يستعد وعيه إلا فى أواخر اليوم ، عندما حمل إلى المستشفى مع ضباط روس أُخر ، جرحى وأسرى . وفى أثناء نقله ، أحس بشىء من القوة ، ووسعه أن ينظر حواليه ، بل أن يتكلم .

كانت أولى الكلمات التي سمعها إذ عاد إلى رشده ، كلمات ضابط فرنسي كان يقول بسرعة :

— يجب أن نقف هنا ، سيمرّ الامبراطور من هنا حالا . وسوف يسره أن يرى هؤلاء السادة الأسرى .

قال ضابط آخر :

— هناك اليوم أسرى كثيرون جداً . كل الجيش الروسيّ تقريباً ، حتى أنه في الغالب قد تعب منهم وضجر .

فقال الضابط الأول ، مشيراً إلى ضابط روسيّ في حلة فرسان الحرس البيضاء :

— ومع ذلك ... ! يقولون أن هذا هو قائد كل حرس الامبراطور ألكسندر .

تعرف بولكونسكي على الأمير ريبنين ، وكان قد التقى به في مجتمعات بطرسبرج . ووقف إلى جانبه فتىً في التاسعة عشرة ، هو أيضاً ضابط جريح من فرسان الحرس .

أقبل بوناپرت عَدْواً ، وكفّ حصانه .

وسأل عندما رأى الأسرى :

— مَنْ أكبرهم رتبة ؟

فقالوا له اسم الكولونيل ، الأمير ريبنين .

سأله ناپليون :

— أنت قائد فرقة فرسان حرس الامبراطور ألكسندر ؟

فأجاب ريبنين :

— كنت أقود فصيلة .

قال ناپليون :

— إن فرقتك أدّت واجبها بشرف .

قال ريپنين :

ـــ ثناء قائد عظيم هو أسمى جزاء الجندى .

قال ناپليون :

ـــ إننى أمنحه بسرور . ومَنْ ذلك الشاب بجوارِكَ ؟

فقال ريپنين أن اسمه الملازم سوختيلين .

فنظر إليه ناپليون وابتسم :

ـــ إنه أصغر جداً من أن يأتى يختصم معنا .

فتمتم سوختيلين بصوت خائر :

ـــ ليس الشباب بعائق عن الشجاعة .

قال ناپليون :

ـــ إجابة رائعة ..! سوف تذهب بعيداً أيها الشاب ..!

ولم يكن بالوسع إلا أن يسترعى الأمير أندرو انتباه الامبراطور ، وقد أُتى به أيضاً إلى الأمام ، بإزاء عينى الامبراطور ، ليكمل به العرض . وتذكر ناپليون ، فيما بدا ، أنه رآه فى ميدان القتال ، وخاطبه قائلا له : « أيها الشاب » فذلك نعت ارتبط فى ذاكرته بالأمير أندرو :

ـــ حسناً ، وأنت أيها الشاب ، كيف تحس ، يا صاحبي الشجاع ؟

وعلى أن الأمير أندرو كان باستطاعته ، منذ خمس دقائق ، أن يقول بضع كلمات للجنود الذين كانوا يحملونه ، إلا أنه صمت الآن ، وعيناه مثبتتان بناپليون مباشرة .. فكم بدت له ، فى تلك اللحظة ، تافهةً كل الهموم التى تشغل ناپليون . كم بدا له حقيراً بطله نفسه ، بغروره الزهيد وفرحه التافه بالنصر ، بإزاء السماء العالية ، العادلة ، الرحيمة ، تلك التى رآها ، وفهمها ، حتى لم يستطع أن يجيبه .

شدّ ما لاح له كل شىء عقيما ، لا معنى له ، بإزاء تلك الأفكار الرصينة الصارمة التى أثارها فى نفسه ضعفه بعد ما فقد من دم ، وعذابُه ، ودنوّ

الموت . نظر الأمير أندرو إلى عيني ناپليون ، وفكّر في تفاهة العظمة ، وانعدام أهمية حياةٍ لا أحد يستطيع فهمها ، وأكبر من ذلك انعدام أهمية الموت الذي لا أحدَ حياً ، يستطيع فهمه أو تفسيره .

استدار الامبراطور دون أن ينتظر رداً ، وقال لأحد الضباط ، وهو يمضي :

— اعتنِ بهؤلاء السادة ، وليؤت بهم إلى مقري . وليفحَص لاري طبيبي جراحهم . أوريڤوار ، أيها الأمير ريپنين ..!

وهز جواده ، وانطلق يعدو .

كان وجهه يشرق ويستضيء بالرضا عن النفس ، والسرور .

كان الجنود الذين حملوا الأمير أندرو قد جعلوا بالهم إلى الأيقونة الذهبية الصغيرة التي كانت الأميرة ماري قد علقتها حول عنق أخيها ، وأخذوها ، فلما رأوا ما أبداه الامبراطور على الأسير من عطف ، عجّلوا الآن بارجاع الصورة المقدسة .

ولم ير الأمير أندرو كيف أرجعت إلى مكانها ولا من أرجعها ، ولكن الأيقونة الصغيرة ، بسلسلتها الذهبية الرفيعة ، ظهرت فجأة على صدره ، في خارج حلته .

فكر الأمير أندرو وهو يرمق الأيقونة التي كانت أخته قد أحاطت بها عنقه ، بكل ذلك الإجلال والعاطفة :

— كان يحسن لو أن كل شيء واضح وبسيط كما يبدو عند ماري وما أحسن أن نعرف أين نبحث عن العون في هذه الحياة ، وماذا ننتظر بعدها فيما وراء القبر ..! كم يسعدني ويهدئني لو استطعت الآن أن أقول: «ربي ، كن رحيماً بي ...» ولكن لمن ينبغي أن أقول ذاك ؟ إمّا لقوةٍ لا تعريف لها ، لا تُفهم ، لست أستطيع أن أتجه إليها بالخطاب ، فحسب ، بل لا أستطيع أن أعبر عنها بالكلمات — الكل العظيم أو لاشيء —

وإما لذلك الإله الذى خاطته مارى فى تلك التعويذة ..! لا شىء مؤكداً ، لاشىء على الاطلاق إلا انعدام أهمية كل شىء أفهمه ، وعظمة شىء لا يفهم ، كلىّ الأهمية .

وتحركت النقالات . وعندكل رجة كان يحس مرة ثانية ألماً لا يُطاق ، وارتفعت به الحمى ، وأخذ يهذى . وكانت الموضوعات الرئيسية فى خيالاته الهاذية هى رؤى أبيه ، وزوجته ، وأخته وابنه القادم ، وذلك الحنان الذى أحسه فى ليلة المعركة ، وقامة نابليون الصغير التافه ، وفوق كل شىء ، تلك السماء العالية .

وتمثل حياة البيت الهادئة وسكينة السعادة فى «ليسى جورى» . وكان يستمتع ، بالفعل ، بتلك السعادة ، عندما لاح له فجأة نابليون ذلك الصغير ، بنظرته التى لا عطف فيها ، تنم عن سرور ضيق الأفق يستثيره عنده بؤسُ الآخرين ، فجاءت الشكوك وأهوال العذاب ، ولم تكن هناك إلا السماء تعد بالراحة والسلام . وقرابة الصبح ذابت كل تلك الأحلام ، وامتزجت فى فوضى الذهول والغيبة عن الوعى وظلامها ، وكان الغالب الأرجح فى رأى لارى ، طبيب نابليون ، أنها ستنتهى إلى الموت لا إلى النقاهة .

قال لارى :

— إنه مريض عصبى ممرور ، ولن يُشفى .

وتُرك الأمير أندرو ، مع غيره من المصابين بجراح قاتلة ، فى عناية سكان المنطقة .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٩٢١٧

I.S.B.N. 977-01-4138-0

Bibliotheca Alexandrina
0494694

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٠٠ قرشاً